كتاب المكافأة

وحسن العقبى

حققه ، وشرحه ، وصححه

محمود محمد شاكر

كتاب المكافأة

وحسن العقبى

حققه ، وشرحه ، وصححه

محمود محمد شاكر

[الطبعة الأولى]

رمضان ١٣٥٩

أكتوبر ١٩٤٠

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بشارع محمد على بمصر

لصاحبها : مصطفى محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله

[أبو جعفر ، أحمد بن يوسف بن إبراهيم ، صاحب كتاب المكافأة وحسن العقبى ، لم نجد من ترجمه إلا ياقوت الحموى فى معجم الأدباء ج ٢ ص ١٥٧ — ١٦٠ . وهذه الترجمة ـ على عادة شيوخنا رضوان الله عليهم ـ ناقصةٌ لم تستوعب شيئاً ممّا يحقّق للمترجَم معنى الترجمة . وذكر ياقوت فى هذه الترجمة أباه : « يوسف بن إبراهيم » ، فذكر بعضَ خبره ، ثم ذكر أحمد بن يوسف ، وعدّد كتبه ، وذكر تاريخ وفاته ، ولم يذكر مولده . ونقل من هذا الكتاب القصتين المذكورتين برقم ١٣ ورقم ٢٦]

* * *

كانت أم « يوسف بن إبراهيم » ظِئْراً [1] لإبراهيم بن المهدىّ ، أخى هرون الرشيد ، [ولد إبراهيم بن المهدى سنة ١٦٢] ، وكانت مجدَّدة العَهْد ببيت الخلافة . وفى سنة ١٨٠ ولد الرشيد : أبو إسحق محمد بن هرون الرشيد ، وهو المعتصم أمير المؤمنين . وفى هذه السنة ولدت أم يوسف ، ولدها يوسف ، فأرْضَعَتْه مع المُعْتَصِم . لهذا كان يوسف بن إبراهيم يعرف بابن الدَّايَة [1] ، لمكان أمّه من رعاية إبراهيم بن المهدىّ وحضانته وإرضاعه ،

(١) الداية والظئر واحد : وهى التى ترضع ولد غيرها وتحضنه

وكان يعرف برضيع المعتصم [١] ، لمكان رضاعه مع المعتصم وهو سَلِيئُه والناشئ معه

ونحن نرجح أن يوسف بن إبراهيم نشأ مَعَ أبناء هرون الرشيد حتى مات الرشيد سنة ١٩٣ . فتخلّق بأخلاق بيت الخلافة حتى قال ياقوت عنه : «كانت له مروءة تامة وعصبيّة مشهورة» ، ويعنى بالعصبية انتصاره لأهل بيت الخلافة وتحققه بحبّهم وخدمتهم . والذى نراه أنه وَلِع بالحساب والطبّ والأخبار والكتابة ، فأخذ عن جبرئيل بن بختيشوع طبيب الرشيد ، وعن إسماعيل بن أبى سهل بن نوبخت ، وأيوب بن الحكم ، وعن أحمد بن رشيد الكاتب ، وصحب إبراهيم بن المهدىّ فأخذ عنه

ثم لم يَزَلْ مع إبراهيم بن المهدىّ حتى صار حاسبه القائم بأمر ضياعه ، وكاتبه الذى يتولّى رسائله وصحبته وأسراره . وقد ذكر ولده أحمد بن يوسف «المكافأة ص ١٣٦» أنه ألف كتاب أخبار إبراهيم بن المهدىّ . ولكن ياقوت الحموى خَلَط فى ترجمته ، فذكر أن يوسف ألف كتاباً فى أخبار المتطببين ، واقتصر على ذلك ، وأدخل «كتاب أخبار إبراهيم بن المهدىّ» و «كتاب الطبيخ» فى عدة مؤلفات لابنه أحمد بن يوسف صاحب المكافأة . وهذا وهم فاسد ، فإنّ نصّ كلام أحمد بن يوسف فى المكافأة «ص ١٣٦» يدلّ دلالة واضحةً على أن مؤلّف هذين الكتابين هو أبوه يوسف بن إبراهيم . وإنما رواهما

---

(١) انظر هذا الكتاب ص ١٣ ، وأخطأ ياقوت فقال : إنه رضيع إبراهيم بن المهدى

عنه أحمد بن يوسف ، وروى عنه أخبار إبراهيم بن المهدى أيضا : رضوان ابن أحمد جالينوس الصيدلانىّ ، ورواه عن رضوان أبو الفرج الأصفهانى ، وذكر بعض روايته عنه فى كتابه « الأغانى »

ومما ترتاح إليه النَّفْس أنّ يوسف بن إبراهيم هرب إلى مِصْر أو الشام ، فى المدة التى استَتَر فيها إبراهيم بن المهدىّ بعد خلافته ومحاربته المأمون ، من سنة ٢٠٣ إلى سنة ٢١٠ ، إذ ظفر به المأمون فأخذه وعفا عنه واستبقاهُ . فلما رَجَع إبراهيم إلى بغداد ، وعاش بها فى أمان المأمون - رجع يوسف - وبقى معه إلى أن مات سنة ٢٢٤

وتزوَّج يوسف بن إبراهيم ببغداد من بنت ميمونة مولاة حمدونة أم محمد بنت الرشيد [1] ، وهذه الزوجة ليست أم « أحمد بن يوسف » بغيرشكّ . وقد ذكر أحمد بن يوسف فى المكافأة « ص ٥٦ » أخاً له لم يسمّه ، فلا ندرى أهو شقيقه ، أم أخوه أكبر منه من بنت ميمونة هذه ؟

وقد رَوَى يوسف بن إبراهيم [2] أنّه نزلَ دمشق سنة ٢٢٥ على عيسى بن حكم الدمشقى الطبيب ، فظاهرُ هذا أنّه فارق بغداد بعد وفاة إبراهيم بن المهدى ، ولكنّه رجع إليها وبَقِى بها إلى مابعد سنة ٢٢٧ ، وهى السنة التى مات فيها المعتصم . ويدل على ذلك خبرٌ رواه أبو الفرج الأصفهانىّ فى أغانيه [3] . يستبين منه أنّ

---

(١) ذكر ذلك فى المكافأة ص ١٢٧ - ١٢٨

(٢) عيون الأنباء : ج ١ ص ١٢١

(٣) ج ١٤ ص ١٠٦ - ١٠٧

يوسف بن إبراهيم كان ببغداد إلى وفاة المعتصم

فالراجح إذن أنّه رَحَل من بغداد إلى مِصْر بعد ذلك، فقد مات مولاه إبراهيمُ، ومات رضيعُه المعتصم، واضطربت الدولةُ اضطراباً شديداً. وكانَ هو قد اعتقد من المالِ ما يسوّغه النعمة فى رغد العيش، فنزل مصر، وعمل فى تقبُّل الضّياعِ، وحسن حالُه وظاهره، كما روى ذلك لولده ص ١٣٦.

ويدُلّ ما رواه أحمد بن يوسف فى المكافأة «ص ١٣٦» على أن يوسف بن إبراهيم كان من كتاب مصر إلى سنة ٢٥٠، فإن حساب ضياعه كان فى الدستورات القديمة التى طلبها أبو العباس بن بسطام ليعتبر منها عبر الضياع. فلما جاء ابن طولون عزله عن ذلك لما يعرف من أسبابه بالحضرة العبّاسية

ولم يزل يوسف بن إبراهيم بمصر إلى أن جاء أحمد بن طولون إليها سنة ٢٥٤. فلما استقر أحمد بن طولون بها جَعَل يُحكم أمر دَوْلتِه. ويأخُذُ بأفواه الطّارق على كُلّ من لَهُ سببٌ إلى الحضرة العباسية [1]. فمن ذلك ما جرى بينه وبين ابن مدبر، ثم ماكانَ من حَبْسه يوسف بن إبراهيم فى داره ـ وكان اعتقال الرجل فى داره يؤيس من خلاصه ـ [كما قال مؤلف المكافأة ص ٢٠٨] ثم أطلقه بعد ذلك

وقد ذكر ياقوت أن يوسف بن إبراهيم كانت له عصبيّةٌ مشهورة، وهى عصبيته لبيت الخلافة، فلما تُوفّى بعث أحمد بن طولون خدمه فهجموا الدار،

(١) انظر المكافأة ص ٨٨

« وطالبوا بكتبه : مقدرين أن يجدوا فيها كتاباً ممن ببغداد »[1]، يعنى الخليفة

فبيّنٌ أن وفاة يوسف بن إبراهيم كانت مابين سنة ٢٥٥ وسنة ٢٦٠ ، وهو العهد الذى استقل فيه أحمد بن طولون بمصر واشتدّ فيه فى ضبط المملكة لنفسه وولده. وأولى الأقوال بالصواب أن تكون وفاته فى سنة ٢٦٠ أو بعدها بقليل؛ فقد روى صاحب المكافأة « ص ٢٩ » ، أن جماعة من مستورى مصر كانوا فى مجلس أحمد بن طولون حين قبض على يوسف، وجاء فى كلامهم أنهم قالوا : « لنا ثلاثون سنة ما فكرنا فى ابتياع شيء مما احتجنا إليه ، ولا وقفنا بباب غيره » يعنون «يوسف بن إبراهيم». فإذا صحّ أنّه قد دخل مصر بعد وفاة المعتصم سنة ٢٢٧ فلا شك أن القبض عليه كان حوالى سنة ٢٥٨ ، وتكون وفاته بعد ذلك بعامٍ أو عامين على الأرجح

☆☆☆

والراجح أيضاً عندنا أن يوسف بن إبراهيم تزوّج بعد أن دخل مصر سنة ٢٣٠ ، وأنّ أحمد بن يوسف يوم وفاة والده كانَ كبيراً مدركاً لا يقلّ عمره عن العشرين ، انظر المكافأة ص ٥٦» ، فمولده إذن فيما بينَ سنة ٢٣٥ وسنة ٢٤٥ ، وأقرب ذلك عندى أن يكون مولده فى سنة ٢٤٠ أو نحوها ، وعلى ذلك فأحمدبن يوسف عُمّر مائة سنة تزيد أو تقلُّ قليلا [مات أحمد سنة ٣٤٠]

فأحمد بن يوسف إذن مصرىّ المولد مصرىّ المنشأ مصرىّ المَرْبَى ،

---

(١) المكافأة ص ٥٦

تدلّ على ذلك روايتُه فى كتابه هذا ، فإنّه لم يرو عن غيره من المصريّين ، ولم يحدّث إلّا عن أخبارهم ، أما أخباره الأخرى عن بغداد فهى مما رواه عن أبيه يوسف

وقد نشأ أحمد فى كنف أبيه ، فأخذ عنه ولعه بالكتابة والحساب والهيئة ، فقد قال ياقوت أنه « أحدَ وجوه الكُتّاب الفصحاء ، والحُسّاب والمنجمين : مجسطىّ أو قليدسى ، حسن المجالسة ، حسن الشعر ، قد خرج من شعره أجزاء »

وقد ذكر هو من شعره فى كتابه « ص ٢٢ » وفى « ٥٢ » ، وزعم أنّه كتب لأبى الفياض سوّار بن أبى شراعة الشاعر جزءاً منه ، فدخل به بغداد ، وعرضه على جماعة الأحرار ، واشتهر أمره ، حتى كان من ذلك ماقصه هناك من سؤالِ محمد بن سليمان عنه حين دخل مِصْر

والظاهر أن أحمد بن يوسف لم يَلِ شيئاً من أمر الكتابة فى مِصر فى عهد أحمد بن طولون ، لما كان يظن بأبيه من موالاة الحضرة العباسيّة ، فانصرف إلى ضياعه وضياع أبيه يقوم فى أمرها . وكانت ضياعهم هذه فى جهة أهناس والبَهْنسا وشُمُشْطا فى صعيد مِصْر كما ذكر فى ص ٢١ ، ٢٣٧ ، وعمل كعمل أبيه فى تقبّل الضياع ، وفرغ للتأليف والكتابة

فألف كتاب المكافأة ، وكتاب حسن العُقْبى [هذا المطبوع] ، ثم كتب سيرة أحمد بن طولون . وكتاب سيرة ابنه أبى الجيش خمارويه بن أحمد بن

طولون ، وسيرة هارون بن أبي الجيش ، وأخبار غلمان بني طولون ، وكتاب مختصر المنطق ألفه للوزير على بن عيسى ، وكتاب الثمرة ، وكتاب أخبار المنجمين . وقد ذكر ياقوت فى عداد كتبه : كتاب أخبار الأطباء، وكتاب الطبيخ ، وكتاب أخبار إبراهيم بن المهدىّ . وهذه الثلاثة هى كتب أبيه بغير شكّ كما مضى ، وأنا أرجّح أن كتاب أخبار المنجمين هو من عَمَل أبيه أيضاً ، ورواه هو عَنْه وزاد عليه

* * *

رأيتَ قبلُ أن يوسف بن إبراهيم وولده ، كانوا على عهد أحمد بن طولون مظنّة التهمة فى مراسلة الحضرة العباسيّة ، ولذلك أخذوا أخذاً شديداً ، وأخيفوا وراعهم مايلقى أنصارُ الخلافة العباسية من بطش ابن طولون . واستمروا على ذلك فيما نرجح إلى وفاة ابن طولون فى سنة ٢٧٠

وتولّى مِصْر بعده أولاده : خمارويه بن أحمد بن طولون إلى سنة ٢٨٢ ، ثم جيش بن خمارويه إلى سنة ٢٨٣ ، ثم هارون بن خمارويه إلى سنة ٢٩٢ ، ثم شيبان بن أحمد بن طولون وفى عهده انقضت دولة بنى طولون . والظاهِرُ أن أحمد بن يوسف كانَ مجاملًا لهؤلاء الولاةِ ، فلم يلقَ مِنْهم كيداً بعد الذى لقيه هو وأبوه فى عهد أحمد بن طولون ، ولذلك عُدَّ من أعوان الدولة الطولونية ، وكذلك توهَّم هو نَفْسَه

فقد ذكر فى «ص ٥٠» قال : «لما دخل محمد بن سليمان مِصْر ، نزل فى

ظاهرها ، واستدعى الواحد بعد الواحد من أسباب الطولونية ، فاستصفى ماله بالسوط وعظيم الإخافة ، فراعنى أمره ، وخفت أن يلحقنى عسفه » ، فلولا ما كانَ من اشتماله على المداهنة لولاة الطولونية لما خافَ هذا الخوفَ ، ولما استتر وتخفى من أصحاب دَميانة البحرى [1] الذى وكله محمد بن سليمان باستباحة مصْر ، فنهبها أصحابه وأخذوا الأموال ، واستباحوا الأعراض ، [قال صاحب النجوم الزاهرة] : « ثم تعدَّوا إلى أرباب الدولة وأخرجوهم من دورهم وسكنوها كرهاً ، وهرب غالبُ أهل مصر منها ، وفعلوا فى المصريين مالا يفعلونه فى الكفرة ، وأقاموا على ذلك أياماً كثيرة مصرّين على هذه الأفعال القبيحة »

كان ذلك فى سنة ٢٩٢ ، ولكنّ أحمد بن يوسف يقصُّ علينا فى «ص ٥٠ - ٥٢» كيف انتهى أمره مع محمد بن سليمان ، وكيف أجاره وحفظه ورعاه ، وكان أفضل عونٍ له فى أموره « ص ٥٢ » ، وأنه مالحقه شئٌ يكرهه حتى انصرفَ عن البلد « ص ٥١ »

وكان محمد بن سليمان هذا كاتباً ، وكان لا يسمّى باسمه ولا بكنيته ، وما كان يُدْعى إلا بالأستاذ ، وقد كان أعظم ماعطفه على أحمد بن يوسف مارواه من شعره فاستحسنه ، حتى قال له : « والله لقد اشتقت الدخول إلى مِصْر من أجلك ! » « ص ٥٢ » . هذا ، على مايروى من أنّ حكمه فى أهل مصر كان

(١) انظر المكافأة صفحة « ٢٤ و ٢٥ »

بضرب أعناقهم، وقطع أيديهم وأرجلهم ، وتمزيق ظهورهم بالسّياط، وصَلْبهم على جذوع النّخل ، ونحو ذلك من أصناف النكال . وحتى إنّه شرّد رجال الدولة الطولونية ، ولم يبق بمصر مِنْهم أحد يذكر ، وخلت الديار وعفت الآثار ، وزالت الدولة الطولونية على يديه ، وكانت إقامته بمصر أربعة أشهر إلى مستهل رجب سنة ٢٩٢

وعاش أحمد بن يوسف بعد انقضاء الدولة الطولونية في ظِلّ الولاةِ على ترتيبهم إلى ولاية الإخشيد، ثم أنوجور بن الإخشيد، ومات في السنة السادسة من ولايته سنة ٣٤٠ . ولسنا نعرف على التحقيق شيئاً عن حياته في ظِلّ هذه الدول ، ونستثنى صلته بالوزير على بن عيسى بن داود بن الجراح الكاتب البغدادى . فإنه ألّف له كتاب مختصر المنطق ، كما مضى ذكره . وكان على بن عيسى قدم من مكة إلى مصر ليكشفها في سنة ٣١٣ وبقى بها ثلاثة أشهر ، ثم خرج عنها إلى الرملة ، وعاد إلى بغداد . ولم نجد في كتابه هذا [المكافأة] ، مايدلّ على شيءٍ من حياته وتصرّفه في أعماله في حُكْمِ الولاة من سنة ٢٩٢ إلى سنة ٣٤٠، ولعلّه أقامَ واستقرّ وانقطع في بعض ضياعه ، وكان دخوله الفسطاط قليلا

* * *

كانَ عصر الدولة الطولونية في مصر من أحسن عصورِها في ذلك التاريخ ، ولذلك أفرده أحمد بن يوسف بالتأليف كما ذكرنا قبل . وهذه الكتب التي كتبها في سيرة الدولة الطولونية ، هي التي خلدت ذكره ، ووَسَمَتْه بالكتابة ،

وجعلت قوله مشهوراً فى تاريخ هذا العَصْر

وليس بين يدىّ الآنَ شىءٌ مما كتبه فى سيرة ابن طولون ، وقد بقى منها جزءٌ ، فأرانى غير مستطيع أن أكتب عن حقيقة أسلوب الرجُل فى التاريخ والرواية وتحرير القول . ولكن كتاب المكافأةِ أغنى بعض الغناءِ فى البيانِ عن شىءٍ من ذلك

فقد ساق أحمد بن يوسف كتابه هذا على مدرجةٍ من القول فى المكافأة على الحسن والقبيح ، وحسن العقبى فى الصَّبْر والتشدُّد ونفى الجزعِ عن النفسِ ، وهو فى أكثره يروى الخبرَ عمن حدَّثه به أو يصوغ فى عبارته حكاية مالقيه أو شاهده أو استخرجه

وهو فى بيانه قليل التكلُّف ، قريب اللَّفظ ، بعيدٌ عن الغموضِ . وسهَّل له ذلك أنه بفطرته محدِّثٌ بارعٌ ، أو كما قال ياقوت : « حسن المجالسة » . فكانت سياقة كلامه فى كتابته أشبَه بالحديثِ منها بالكتابة . وهو إذا عرَض لغرضٍ أبانَ عنه بوضوح وترتيبٍ وتساوقٍ ، ثم هو فى خلالِ ذلك جزلُ الرأيِ ، مُحْكم الفكرةِ ، قريبُ الغَوْر

وسببُ ذلك أن أحمد بن يوسف كان صاحب منطق ، وحساب وهندسة ، كما رأيت ، ومن طبيعة التحقق بدراسة هذه العلوم أن تجعَل المرأى جزالةً وإحكاماً ليست لغيره ممن عَدِمَ النَّظر فيها والتمرُّس بها . وقد صدق الشافعى رضى الله عنه إذ يقول :

« من تعلّم القرآنَ عظمت قيمته ، ومن نظر فى الفقه نَبُل مقداره ، ومن كتب الحديث قويت حُجتُه ، ومن نَظَر فى اللغة رَقَّ طبعه ، ومن نَظَر فى الحساب جَزُل رأيُه ، ومن لم يَصُنْ نفسه لم ينفعه علمه » . ولم يخل أحمد بن يوسف من أكثر ذلك

وقد اعتمد أحمد بن يوسف فيما يقصُّه أن يتّبع رأى الجاحظ فى رواية بعض القول على وَجْهه كما يجرى فى الحديث ، غير مستنكر أن يكون فيه اللحنُ والخطأ فى اللغة ، مادلَّ ذلك على حكايةِ لفظٍ يختَلُّ حالُه إذا أزيل عن الوجه الذى نطق به

ومع ذلك ، ومع ما عرف عنه من حُسْن المجالســة ، فإنّه كان ركيناً ثابتاً قليــلَ الحظّ من الفكاهةِ والسخرية والعبث ، فقد جرى فى كتابه بعضُ مالو أُزيلَ قليــلا عن وجهه لكان غايةً فى استدعاءِ الضَّحِك واستخراج المُزاة ، ولــكنه كان يعدِلُ عن ذلك لقـلّة حظّه من اللّهْو ، وكأنّ ذلك كان الأدب الذى أدّبه به أبوه من آيين [1] بيوت الخلفاء ، ثم مالقى من الأحداثِ الكثيرة المفزعة التى كانت تنفِى عَنْه أفراحَهُ ونشاطه للّهو ، ثم لما لعلّه كانَ فيه من الحرصِ الذى هو شيمة أصحاب التقبُّل بالضياع والأموال وما شاكلها ، وما لازمه مع ذلك من الخوفِ من أول حياتِه ، كما رأيتَ من خبره يوم وفاة أبيه وما تبع ذلك ، ثم طبيعة النَّفْس وانصرافها إلى الفِكر فى علم الحساب والنَّظر فى الهيئة

(١) الآيين : هو قريب مما نسميه الآن « الإتيكيت »

وقد استعمل أحمد بن يوسف فى كتابه هذا كثيراً من الألفاظ المصرية التى لا تزالُ باقيةً إلى يوم الناسِ هذا ، وعرَض بعضَ العادات القديمة التى لا تزالُ تنحدرُ إلينا من ذلك العَصْر ، ولكنّه كان قليل الْحَفْل بالبيان عنها وكشفها ووَصْفها واستيعاب القول فيها . وذلك لأنّه كان يرمِي إلى غرضٍ بعينه ، فلم يَسِر فى قصصه سيرة الجاحظ فى الاستطرادِ والتوسُّع ، وتشقيق المعانى العارضة فى وجوهٍ كثيرةٍ . وكأنّ ما تعوَّده من الضبط فى الحساب ، هو الذى حَمَله على الضّبْط فى الحديث ، ولو فَعَل لكان فى كتابه بعضُ التاريخ الاجتماعى الضائع للعصور العربيّة الزاهرة التى لا نعرِفُ إلّا بعضَ رسمها وأشتاتاً من صفاتها

***

وبعد ، فهذا غاية ما أعانَ عليه الوقتُ ، وهو ما هو ، من ترجمة « أحمد بن يوسف » ، فإن تكُن فى العُمْر بقيّةٌ ، نأتِ فى ترجمته بما يعين الله عليه ، مع التحرير والضّبْط والتفصيل بعد الإجمال . وبالله التّوْفيقُ ، ومنا العجز والتقصير ؟

محمود محمد شاكر

مصر الجديدة :

ليلة الاثنين ١٢ رمضان سنة ١٣٥٩
١٤ أكتوبر سنة ١٩٤٠

بسم الله الرحمن الرحيم

أخبرنا أبو محمد عبد الله الفَرْغَانِيُّ، قراءةً منّي عليه، قال:
أخبرنا أبو جعفر أحمدُ بن يوسف الكاتبُ، قراءةً منّي عليه، قال:

سَدّد الله فِكْرَك، وأحسنَ أمْرَك، وكَفَاكَ مُهِمَّك

إنَّ أشدَّ على المُمْتَحَنِ من مِحْنَتِه، عُدُولُه في سَعْيه عن مَصْلحته، وتَنَكُّبُهُ الصوابَ في بُغْيَته. ولكلِّ وِجهة من الجَدْوى مأتًى تُسْتَنْزَل به عوائدُها، ويقرُبُ معه ما آستصعَبَ منها، يستثيره حُسْن الرَّوِيّة، [ويَهْدِي إليه] صالحُ التَّوْفيق

وقد رأيتُكَ لا تَزِيد مَن رَغِبْتَ إليه ـ فيما تَحْدُوهُ على بِرّك، وتحثُّهُ لِمَا أغفل من أمْرك ـ على نَصِّ مكارِمِ مَنْ سلَفَ[1]. وتَرى أنَّه يَهَشُّ إلى مُساجَلتهم، فلا تَبْلغ في هذا أكثرَ من إحرازِ الفضيلة للمرغوب إليه، ولا تُوجِد في الراغب فضيلةً تحثُّه على شَفِيع قَصْده[2]. ولو عدلتَ عن مكارِم من رُغِبَ إليه، إلى حُسْن مُكافأة من أُنْعِمَ عليه، لكانت لك ذرائعُ يَمُتُّ[3] بها الرَّاغب، تُوجِدُ

(1) نصَّ الشيء، ينصه: رفعه وأظهره
(2) شفيع قصده: هو المكافأة والشكر
(3) متَّ إليه، يمتّ: توسل إليه

المرغوبَ إليه سبيلاً إلى الإنعام ، وتَفْسَح أمَلَه فى مُوَاتَرة الإحسان [1]

ولم يُؤْتَ الجودُ من مَأْتًى هو أغْمَض من مُغادرةِ حسنِ المكافأة . ولو أنعمتَ النَّظرَ فيها : لَوَجَدْتَها أقْوَى الأسباب فى مَنْع القاصد ، وحيرةِ الطالب . ولو كانت تُوجَد مع كُلّ فعل آسْتَحقَّها ، لآثَرَ النّاسُ قاصِديهم على أنفُسِهم ، ولَجَرَوْا على السُّنن المأثورةِ عنهم

[وقد كتبتُ لك] فى هذه الرسالة أخباراً — فى المكافأة على الحَسَن والقَبِيح ، تُنْعِمُ [2] الخاطرَ ، وتقرِّب بُغْية الراغب — مما سَمِعناه عن تَقَدَّمنا ، وشاهدناه بعَصْرِنا ، وبالله التوفيق

(١) المواترة : المتابعة

(٢) فى الأصل : « تعم »

١ ـــ المكافأة على الحسن

خالد القسرى وديوانيانه

١ ــ حدثنى أبو محمد يحي بن الفضل ، عن عبد العزيز بن خالد الأموى ، عن أبيه خالد ، قال : أخبرنى محارب بن سَلَمة كاتبُ خالدٍ القَسْرىِّ :

« أنَّ دِيوَانيَانَ خالدٍ [1] أخرج من دِيوانه وَثيقةً على بعض المتَضَمِّنين [2] فدفعها إليه بِبِرٍّ تَعَجَّله منه . فدعا به خالدٌ وأمر بقطْع يده بين يديه ، فقال له : « آستَبْقِنى ، أصلحَ اللهُ الأمير ! » ، فقال : « وما يكونُ منْ مثلِك ؟ » ، فقال له : « إنْ لم يُقدَّرْ فى الزمان رِفْعتى إلى منزلتك ، فلا تأمَنْه على حَطِّك إلى مَنْزلتى ، فيكونُ منِّى ما تَحْمَدُه ! » ، فقال خالد : « أطلِقُوه ففِيه عظيمٌ ! »

فلم يمضِ حَوْلٌ حتى ورَدَ العراق يوسُف بن عُمَر متولِّياً لعملهِ فحبسه فى حُجْرة من ديوانه ، ووكَّل بباب الحُجْرة جماعةً . فتدسَّسَ الدِّيوانيَانُ حتى دخَل فى جُمْلتهم ، وتلطَّف للجماعة حتى رَأَسَها بالخِبْرة وحُسْن المداخلة . وتحرَّم [3] خالدٌ طعامَ يوسف بن عمر ـ خوفاً من أن يكون مسموماً ـ فطَوَى [4]

---

(١) الديوانيان : صاحب الدّيوان وحافظه

(٢) المتضمن : الكفيل الذى يتحمل بأموال الضياع وخراجها وأدائها لبيت المال

(٣) تحرم الطعام : أمسك عنه فلم يقربه

(٤) طوى : تعمد أن لا يأكل ولا يشرب

وتأمّل من ذلك الديوانيانُ ، فجعل فى مِنْديلٍ نظيف ما يكُفُّ جَوْعتَه من طعامٍ قد تأنَّق فيه ، ودَخل إليه كالمتجسّس عن حاله ، فقال له : « أنا الدّيوانيانُ الذى عَفَوْت عنه ، وهذا طعامٌ تأمَنُ فيه ما تخافُه من غِرَّةٍ [1] » . فأقام أياماً يأتيه من طرائف الأطعمةِ والفواكه ما ينْسَى به وَحْشته ، ويكُفُّ فاقتَه ، ثم دخل إليه فقال : « ليس هذا الذى أفعلُه مقدارَ ما يقتَضِيه إحسانُك إلىَّ ؛ وقد آستأجرت الدّارَ التى فى هذه الحَجْرَة [2] ، وأحضرتُ قوماً أثِقُ بهم من حُذَّاق النقّابين ، حتى نَقَبْتُ سَرَباً إلى موضِعك [3] ، ولم يبق إلّا أن تركُضَ بعض بلاط هذا المجلس ركْضةً فتُفْضِىَ إلى السَّرَب . [4] وقد أعددْتُ فى الدَّار نجيبَين [5] أحدُهما لك والآخرُ لى »

فلمّا صَلَّى الديوانيانُ العصرَ أغلقَ البابَ ، ومضَى إلى الموضع المُكْتَرَى [6] ، وركضَ خالدٌ الموضعَ وخرج من السَّرَب ، وركبا نجيبيهما وحَثَّا المسيرَ . فما فُطِن بخالدٍ إلّا فى غدِ ذلك اليوم ، فطلبته الخيلُ والنُّجب [5] ففاتَها . ولم يزلْ يُوضِعُ [7] فى البلاد حتى لحق

---

(١) الغرّة . الخديعة . وفى الأصل : « فى غرة »

(٢) الحجرة : الناحية

(٣) السرب : الطريق الخفى ، السرداب

(٤) ركض الشىء برجله : ضربه

(٥) النجيب : الخفيف السريع من الإبل ، والجمع نجب

(٦) اكترى الموضع : استأجره

(٧) أوضع فى الأرض : أسرع

مَسْلَمَة بن عبد الملك ، فشَفَع له إلى هشام وردَّه إلى عمله

* * *

ابن مرزوق ومتضمن

٢ — وحدثنى هارون بن مَلُّول ، قال :

« كنت عند أحمد بن خالد الصّريفىّ — وهو يتولّى الخراج بمصر ، ووجُوهها عندَه ، وقد أكبَّ على حاصلِ ما استُخْرج فى أمسِه ، وهو يقابل به ثَبَت المُصادرة [١] — ، فقال لصاحب حَمَالته [٢] : « ما أرى اسمَ فلان المتضمّنِ فى هذا الحاصل ، وقد صادَرْنا بالأمس على خمس مائة دينار ؟ » فقال : « ما صَحَّ له شىء ! » فقال : ابعَثْ إليه من يسحَبُه صاغراً حتى يَحْمِلَه على خُطّة المطالبة [٣] » ، فقال له رجل من المتضمّنين يُعْرف بماشاء الله بن مرزوق : « الخمسُ المائة — أيدّكَ الله — تصحّ لهذا الرجل فى هذه العشيّةِ إن شاء الله ، إن أُعْفى ممّا قد أمرتَ به فيه » ، فقال : « هى عليك ؟ » ، فقال : « نعم ! » ، فتقدّم إلى [٤] صاحبِ الحمالة ألّا يَعْرِضَ له . فالتفتَ إلىَّ ماشاء اللهُ فقال : « تعرفُ هذا الرجل ؟ » ، فقلت : « نعم ! ومن العجب ألّا تَعرِفه ! » ،

---

(١) الثبت : الفهرس أو الدفتر (أو ما نسميه الآن الكشف) صادرت فلانا من حسابى على كذا ، وفارقته ، إذا قطعت الأمر بينك وبينه على أمر وقع عليه اتفاقكما

(٢) صاحب الحمالة : من أعمال بيت المال ، وكأنها وظيفة القائم بحساب المتضمنين

(٣) هذه العبارة كثيرة الورود فى كتب هذا العصر ، ويراد بها التعذيب للمطالبة ، على طريقهم فى ذلك

(٤) تقدم إلى فلان بكذا : أمره به

فقال : « يا أخى أمَرَ فى رجل يجرِى مَجْرانا فى مَعاشِنا بمـا لم أُطِقْ واللهِ احتماله ، وعندى ضِعْف ما طُولِب به ، وكانت صِيانَتُهُ أحبَّ إلىَّ مما حَوَيْتُهُ . فإذا لَقِيتَهُ فعرِّفه أنّى أُورِد المـالَ عنه لئلا يُورَد المـالُ مُضَعّفاً »

وانصرفتُ من مجلس أحمد بن خالد ، فلقيتُ الرجلَ فى طريق ، وهو مجدُود [1] ، فسألته عن خبَرِه وأخبرته الخبر ، فقال : « يا أخى ! ومافى هذا من الفرج ؟ إنمـا انتقلتُ من غَمٍّ إلى رِقٍّ ! ومتى أَقْضى إلى هذا الرجل إحسانَهَ إلىَّ ؟ والله لوَدِدْت أنَّ أمْرَ السلطان نفَذَ فىَّ ، ولم أتحمّل هذه العارفة منه [2] ! »

قال أحمد بن يوسف ، فقال لى هارون : « وحضرتُ [مَوْتَ] ماشاء الله بن مرزوق بعدَ هذا بأربع سنين ـ فى الوقت الذى تُوفِّىَ ـ فاتّفق أنْ كان إلى جانبى رجلٌ قد ألقى بعضَ رِدائه على وجهه ، وهو يَعِجُّ بالبكاءِ والشهيق [3] ، ثم كَشَفَ وجْهَه فكان الرجُلَ الذى أوْرَد ماشاء اللهُ عنه الخمسَ مائة الدينار . فقال : « مَنِ الوَصِىُّ من جماعتكم » ، فقال له الوصىُّ : « هاأنا ذا ! » ، فقال : « عندى لهذا الرجل رحمه الله ألفَا دينارٍ وخمسُ مائة دينار » ، فقلت له : « حَدثت بينكما مُعاملة بعدى ؟ » ، فقال : « لا والله ، ولكنها الخمس مائة الدينار ، صرتُ بها إليه عند تَيَسُّرها فقال : « وما [أَبْغِى بها] ؟ تكون عندَك

(١) يريد أنه صاحب حظ وجدّ
(٢) العارفة : المعروف
(٣) عجّ يعج : رفع صوته بالبكاء أو الدعاء

إلى أوَانِ حاجتى إليها ». فسألته [الإذن] فى شَغْلها. فقال: « هو مالُكَ، اعمَلْ به ماشِئْتَ » فلم تزل تَنمِى وتَزِيد حتى بلغتْ هذا المقدارَ. فقال هارون: « ووجَدْتُ ماخلَّفه ماشاء الله لبناتٍ كُنَّ معه شيئاً نَزْراً، فجَبَرَهُنَّ الله بذلك المـال ».

* * *

ابن دعيم وأعرابى

٣ — وحدثنى أحمد بن دُعَيم — وكان من خاصةِ قُوّاد أحمد بن طُولون — بعدَ أن ترك الديوانَ، وحَسُنَ انقطاعُه إلى الله، قال:

« قلّدَنى أحمدُ بن طُولون الصّعيدَ الأوسط. وخرج عليه سوّارٌ أبو عبد الرحمن العُمَرىّ [1]، فكتب إلىّ يستخبرنى عن حاله، فأعلمتُه ضَعْفَ يدِه، وانتشارَ أمره لِقلّة المـال. وقبضتُ على رئيسٍ من الأعراب اتّهَمْتُه بمكاتبتِه وأنْهَيت خبرَه إليه. فكتب إلىّ أحمد بن طولون: يأمُرُنى بحَمْل الأعرابىّ، [وجَمْع] ماقَدَرتُ عليه من النُّجُب، والشُّخوصِ إليـه؛ ليقِفَ من مُشافهتى على مالا تبلُغه المكاتبة. فامتثلتُ أمرَه

فمـا سِرْتُ مَرْحلةً حتى لَحِقَ بى وُجوه تُجّار العَمَل، ومعهم شابٌّ أعرابى، وقالوا لى: « جئناكَ فى أمر هذا الأعرابىِّ المحمول، فإنَّ معنا من يَبْذُل فى إطلاقه خمسَ مائة دينار »؛ فقلت لهم: « قد أنهيتُ أمرَه إلى الأمير! »: فقال الأعرابىّ الذى معهم: « فخُذْ

(١) فى الأصل: « القرنى »، وهو أبو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحميد، من ولد عمر بن الخطاب

الخمسَ مائة على أن تجعلنى مكانَه » ؛ قلت : « أفعلُ » . فأحضرْت الأعرابىَّ ؛ وكان من عشيرتى ؛ فقلت له : « والله لقد كنتُ مغموماً بك حتى سرَّنى خلاصُك ! » ؛ قال : « بماذا تخلَّصتُ ؟ » فقلت : « بَذَل لى رجلٌ خمس مائة دينارٍ على أن يكون بمكانك وأُطْلِقُك ! »

فقال : « ومن هذا الرجُل ؟ » ؛ فأحضرْته إيَّاه . فلمَّا رآه قال : « آمض لشأنك » ، ثم التفت إلىّ فقال : « يَحْسُنُ بشَيخٍ مِثلى أن يَتَربَّح في المعروف ؟ هذا رجلٌ لقيتُه وقد أكبَّتْ عليه خيلٌ لتسلُبَه ثيابَه وما كان معه ، ففرَّقْتُها عنه حتى تَخَلَّص ، فرامَ أن يُخلصنى بحصوله فى موضعٍ لايخرُج منه أُخرى الليالى ، و [هو] غرْمٌ ثقيل على مثله . والله هذا مما لاأقبله ولا أرْكَنُ إليه » ، فقلت له : « آنصرف فى حفظ الله فقد رَضِى الرجُل » ، فقال : « والله لئن أمضيْت هذا لألحقَنَّك ، ولأُخبِرَنَّ الأمير بصَنيعك » ، فتوقفتُ ، وبكى الأعرابىُّ فقال : « إذا كان تَحْبِسُ الأميرِ على ما تَصِف ، وليس ترجُو خلاصاً منه ؛ فما أعمل فى عارِفتك عندى ؟ وأنا أَنْشُدك اللهَ لَما قبلْت مِنِّى ما بذلته وأعظَمَ منه ؛ وأزلتَ هذه العارفة عن عُنُقى ؛ فإنَّ عاراً ونقيصةً على الكريم أن يموتَ وعليه دَيْن من ديون المعروف » ؛ فقال له : « إذا رأيت رجلا أحاطتْ به خيلٌ تُريغ سَلْبَه[1] فذُدْتَها عنه ؛ فقد كافأت عارقى : آنصرف مُصاحَباً[2] » . فعرض عليه مامعه من المال ؛ فقال : « ما بى إليه

---

(١) تريغ : تريد وتحتال

(٢) مصاحباً : تصحبك السلامة

حاجةٌ ! » ، فأكبَّ على رأسِه ورجليه يقبّلُها و يبْكى ؛ فأبكى جماعتَنا

فلمّا دخلتُ على أحمد بن طولون شافهتُه من خبر العُمَرِىّ بما سرّه ؛ وعَرَضت عليه النُجب ؛ فقال : « حسنة والله » ؛ فقلتُ : « معى أيها الأميرُ ماهو أحسنُ من هذا » ، وحدّثته الحديثَ . فأحضر الأعرابىّ وخَلَعَ عليه وأثبتَه فى ديوانه ، وأمرنى بإنفاذِ رسولى معه فى الأعرابىّ الآخر ، فلمّا وافى خَلع عليه وأثبته . فلم يزالا فى خاصّته إلى وفاته

* * *

أبو مصلح ومحبوس

٤ — وحدثنى موسى بن مُصلح المعروف بأبى مصلح ـ وكان هذا من الثّقات عند أحمد بن طولون ـ

أنَّ أحمد كان يُرَاعى أمر المحبوس حتى يَمضىَ له حولٌ [1] ، فإذا جازه لم يذكرْه . وكان يقول لى سِرًّا : « إذا تبيّنْت من رجلٍ براءة ساحة فسهِّلْ عليه واستأْمِرْنى [2] ؛ فإنى أستعملُ التشدُّدَ للضّرورة إليه »

قال موسى بن مُصلح : « وكان فى الحبْس رجل قد زادَ على سنتَيْن منقطِعاً إلى الله برغبتِه ؛ لا يسأَلنا شيئاً من أمره ؛ وهو يُكِبُّ على الصلاة والتّسبيح والتضرُّع إلى الله

فقلتُ له يوما : « الناسُ يضطربون فى أمورهم ؛ ويسألونى إطلاقَ الرُّقعة [3] إلى ذَوِى عِناياتِهم ؛ وأنتَ خارجٌ عن جُمْلتهم ؟ » ، فجزانى

---

(١) الحول : السنة

(٢) استأمره : شاوره

(٣) إطلاق الرقعة : يعنى إرسال الرسائل

خيراً [١] . ورَقّ قلبي عليه وكَبُر فى نفسى محلُّهُ ، فخلوْتُ به وقلت له : « لو استجزْتُ إطلاقك بغير إذنٍ لفعلتُ ؛ ولكنِ استعِن بى فى أمرك » . فقال : « والله ما أعرف فى هذا البلد غيرَ أبى طالب الخليج — وكان هذا الرجلُ يتولّى شُرْطىْ أحمد بن طُولون بمصر — ولو وصلتُ إليه سِرًّا ؛ أو برسالة مع من [٢] يفْهمُ ؛ لرجَوْتُ تسهيلَ أمرى » فقلت له : « والله لأ تِيَنَّ فى أمرك ما أُخْطِر به على نفسى . أنا أُطْلقك سرًّا على أن تُوَثّقَى بأْيمان مُحرَّجة أنّك لاتهْرُبُ عنِّ ولا تُخْفِرُنى » [٣] ، فقال : « إذا كنتُ عندك بمنزلةِ مَنْ يُشكُّ فيه ؛ فلا حاجة لى بإخراجك إيّاى » . فوافقته — من غير يمينٍ أرتهنْتُه بها — على أن يقيمَ ثلاثة أيام ، فأطلقتُه ليلةَ الجمعة ، وفارَقْتُه على أن يصيرَ إلىّ ليلةَ الاثنَين

فلمّا كان سَحَرُ يوم السبت ، وافَانِى كما فتحتُ [٤] باب السجن ، فلمّا دَخَلَ سَجَد وحَمِد الله ، وقال لى : « بعثتُ إلى أبى طالب الخليج امرأةً من أهْلِنا وطَوَيْتُ عنه إطلاقى ، وسألتُه أنْ يَلْطُف فى أمرى فوعَد بذلك ، وخلّفَ المرأةَ حتى ترجِعَ إلىّ بالجواب . وركب إلى

---

(١) جزاه خيراً : قال له ، « جزاك الله خيراً »

(٢) فى الأصل : « ممن »

(٣) أخفر ذمّته : نقضها

(٤) كما فتحت : يريد (حين فتحت) وقد ورد هذا الحرف فى كثير من كتب هذا العصر ؛ وانظر هذا فى آخر القصة (٦٨)

الأميرِ عَشِيَّةَ الجُمُعَة ، فأقام إلى قريب من العَتَمَة ، ثم آنصرفَتْ إلىَّ المرأةُ فقالت : « وافَى أبو طالب الأميرَ وهو مغمومٌ ، فقال لى : « كلَّمته فيه فقال : « واللهِ لقد أذكرتنى رجُلاً يحتاج إلى عُقُوبة ! » ، ثم تقدَّم إلى رجلٍ أن يَصِيرَ بك إليه عند جُلوسه فى يوم السبت ، ووجَّه إلىَّ أن أرجعَ إلى الله عز وجل فى أمْرِك ، فليتَنى لم أتَكلَّم فيك ! » . فسَحِرْتُ[1] - مع ما تيقَّنْتُه فى أمرى - خوفاً أن يأتيَك رسولُه فلا يجِدُنى ، فيلحَقَك مكروهٌ منه . ورأيتُ كُلَّ ما يُوعِدنى به أسهلُ علىَّ من أن أُخْفِرَ ظَنَّك بى ، وتقديرَك فىَّ »

فما ترَجَّلَ النهارُ[2] حتى وَافَى الرجلُ فتسلمه مِنِّى . وحضرتُ الدَّار - وقد أحضره أحمد بن طولون ، ومجلسُه بين الخاص والعام - فلمّا رآه بكَّتَه بالإجْلاب عليه فى الثَّغْر[3] . فاعتذر بعُذْرٍ قَبِلَه ، ولقيَه بالرَّأفة ، بضدِّ ما خِفْتُه عليه . وأطلقه . فكان من آثَرِ إخوانى عندى[4] إلى أن فرَّقت الأيَّام بينى وبينَه »

* * *

ابن أسباط والخناق

٥ — وحدَّثنى عمى إسحاق بن إبراهيم ، قال :

---

(١) سحر : بكر فى السحر

(٢) ترجل النهار : ارتفع ، كما يرتفع الرجل عن الصبا

(٣) أجلب عليه : أعان عليه عدوّه . والثغر : موضع المخافة من أطراف البلاد

(٤) من آثرهم . أى من أحبهم وأقربهم

« انتظرتُ أبا عبد الله الواسطيَّ ـ كاتبَ أحمد بن طولون ـ في داره ، حتى رَجَع من عند أحمد بن طولون . فأوصلَ إليه بعضُ الحُجّاب ثَبَتَ من وقف بالباب ، فرأى فيه إسماعيلَ بن أسْبَاط فسأل عنه . فقيل له : « وقف بالباب طويلاً وانصرَفَ » . فقال : « إنّ هذا الرجلَ ممّن عَمَر هذه المنزلةَ مدّةً طويلة ، ولست أشكُّ أنّ مجيئه لحاجةٍ له ، ومن الجميلِ أن أركَبَ إليه فأقتَضِيَهُ حوائجَه ، وأبْلُغ فيها مَحَبَّته » . ثم ركبَ وسِرْتُ معه ، حتى دخلنا دارَ إسماعيل ابن أسباط ـ وهي التي ملكها الشِّيرُ بعده ـ ؛ فرأينا داراً عاريةً من الستورِ والفُرُش ، وتأمّلنا مَنْ فيها من الحَشَم على حالٍ سيئةٍ . فاستقبله إسماعيل بالشُّكر والدعاءِ له ، فقال له الواسطي : « إنه لا فرقَ بينك الساعةَ عندي في المرتبةِ التي كنتَ فيها . ومن جَمالنا فيما أفضى إلينا أن نُحسِن فيه خِلافةَ من تقدَّمنا ، وأن نراهم كالآباء المستحقِّين البرَّ من أولادِهم » . وسأله عن حاجته ، فقال : « أخبِرُك بها بعد أن أحدِّثَك بشيء يدُلّ على أنّ المعروفَ ينفعُ عند مستحقِّه من غيرِ المستوجبين له »

« كانتْ لي ـ أيَّدك الله ـ دارُ خيلٍ نحو المَنْظَر [١] ، وكنتُ أركبُ إليها في غداةِ الليلة التي أُعاقِر فيها إخواني . فركبتُ إليها يوماً فألفيتُ في الصَّحراء جَمْعاً من العامّة ، وقد ضاقَتْ بهم ، ومعهم عاملُ المَعُونة . واستقبلَتْني امرأةٌ قد هَتَكت سِتْرَها ، وكَشَفت

(١) المنظر : يريد الصحراء

شَعَرَها ، فقالت : « ياسيّدى ! أخى ، وواحِدى ، وكافِلِى ، يُعْرَض على القَتْلِ الساعةَ ! » . فعدَلْتُ إلى صاحب المَعُونة وسألته عن حالِ الناس ، فقال : « اجتمعنا لضَرْب خَنّاقٍ بالسوط » ، فقلت له بحضرة الناس : « ماحقّ هذا إلّا الإحراقُ بالنّار ، وأنا أكتب فيه إلى السلطان » ، فأعلنَ الجميع بالدّعاء لى ، وانصرَفُوا . فسألتُه البِعْثةَ بالخنّاقِ إلىّ ، فوعدنى بذلك فى المساء . فلمّا صلّيت عِشاءَ الآخرةِ أنفَذَ إلىّ منه شابًّا مُكْفَهِرَّ الوجه لا تَخفَى قَسْوَتُهُ ، فقلت له : « أما تَسْتَحِي من الله وتخافُه فى طُعْمَتِك ؟[1] » ، فقال : « ياسيّدى ! أنا أُشهِد اللهَ أنى لا أعاوِدُ هذا الفعلَ أبداً » ، فأوصَيْتُهُ بخير ، وأضَفْت إليه من أخرجه عن البلد فى حالِ سَتْرٍ » .

« وأقمنا بعد ذلك سنين ، وتقاصَرَتْ أمورُنا وتغيّرت أحوالُنا بتقليدِ إسحاق بن تميمٍ علينا . فلمّا بَلَحْنَا[2] بما نُطالَب به ، أشخَصَنى وأخى أحمدَ إلى الحضرة ، فطالبَنا الوزيرُ بما لفّقه ابنُ تميمٍ علينا ، فشكونا إليه شدّة اختِلالِنا[3] ، فقال : « فُلان ! » فوافاه رجلٌ بمنزلةٍ أثيرةٍ[4] عندَه : غليظِ الطّبْع ، كريهِ الوجْه ، تتأمّل الشرَّ فى سَجاياه ، فقال : « استخرجْ من هٰذين مائةَ ألفِ دينارٍ اليومَ » .

---

(١) الطعمة : طريقة كسب الرزق ، يقال : « فلان طيب الطعمة أوخبيثها »

(٢) بلح الغريم : أفلس

(٣) الاختلال : الحاجة والفقر

(٤) أثيرة : مكينة مقربة

ٱبنَيْه عبدَ الله وعبدَ الله ، ويرجُو بهذا أنْ يَلِيَا الخِلافةَ ، ثم يَطْمَعُ في خيرٍ مِنِّي ! والله لولا ماسَّةُ رَحِمِه برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لقَطَعْتُ من وسطه شِبرا (١) »

ثم عانقَ أبا عبد الله ، وقال : « رسُولى إليك صائرٌ » . فرجع أبو عبد الله إلى رحله فقَوَّضَه ، وبقى فى حَيْرةٍ لعجْزِه عما يُنهِضُه . ووافاه رسولُ مسلمةَ يقول : « لم أقدِّرْ فى سَفَرى هذا طولَ اللُّبْثِ ، وأُشْهِد الله أنّى ما حملتُ معى إلاّ ألفاً وثلاثمائة دينارٍ ، وقد وجَّهتُ إليك بالألْف ، وخلَّفتُ الثلاثمائة لنفقتى » قال إبراهيم بن المهدى : فحدَّثتُ بهذا الحديثِ الرشيدُ فى حَديثةِ المَوْصِل فبكى ، وقال : « وَصَلَتْ أبا سعيدٍ رَحِمٌ ، والله لادخلْتُ الرَّقَّة حتى أقضِيَ عارِفَتَه عندنا ! » . فلما وافَيْنا حصنَ مسلمةَ ، أحْصَى مَنْ فيه من وَلَده الذُّكورِ والإناثِ فوَجَدَهم أربعين ، فأمرَ لهم بأربعين ألف دينار »

٭٭٭

ابن نصير والورّاق

٧ — وحدَّثنى أحمدُ بن وليدٍ ، قال :

« ودّعت إسحاقَ بن نُصَير العِبَادِيّ فى بعض خَرَجَاتِي إلى بغداذَ ، فأخرج إلىَّ ثلاثة آلاف دينارٍ وقال : « إذا دخلتَ بغداذَ ، فادفَعْ ألف دينار إلى ثَعْلَب ، وألف دينار إلى المبرِّد ، وصِرْ إلى قَصْر وَضَّاحٍ فانظر إلى أوَّل دُكّانٍ للورَّاقين ، فإنّك تجِد صاحبَها — إن كان حيًّا لم يَمت — قد شَاخَ ، فاجلِسْ إليه وقُلْ له : « إسحاق بن

---

(١) يريد : لخصيته

نُصَير يقرَأُ عليك السَّلام : وهُو الغلامُ الذى كان يقصِدُك كُلَّ عَشيَّةٍ - راجلا من دارِ الرُّوميِّين - بدُرَّاعة [١] وعِمامةٍ ونعلٍ رقيقةٍ، فيستعيرُ منك الكتابَ بعد الكتابِ، فإذا آقتضيتَه كِرَاءَ ما نَسَخَ منه [٢] قال : « آصبِرْ علىّ إلى الصُّنع [٣] » . فإذا استقرَّتْ معرِفَتى فى نفسِه دفعتَ إليه هذه الألف الدِّينار وقلت له : « هٰذه ثَمَرَةُ صَبْرِك علىّ »

قال لى أحمدُ بن وليدٍ : فلمّا دخلتُ بغدادَ - ودفعتُ الألفَ دينار إلى ثعلبَ والمبرِّد - ، مضيتُ إلى قصرِ وضَّاحٍ، فألفيت الدكَّان التى وَصَف لى قفرًا ليس فيه كتابٌ ، ورأيتُ فيها الشيخَ الذى وصَفَه لى فى حالٍ رَثّةٍ وثيابٍ خَلَقةٍ [٤] ، وقد أفضى به الأمْرُ إلى التوريقِ للناس [٥] . فجلست إليه وسألتُه عن حالِه ، فقال : « يا أخى ! ماظنُّك بحالٍ : ما تتأمَّله فىَّ أحسنُ مافيها ؟ » ثم خرَجْنا إلى المسألة إلى أشياءَ كان فيها خَبَرُ إسحاقَ بنِ نُصَير ، فقال : « قد كان يجيئُنى من دَارِ الرُّوميِّين غلام - ووصفَهُ - فأسمَحُ له بالنُّسْخة بعد النُّسخة - يقال له : « إسحاق » ، وكان يَعِدُنى فى كلّ شىءٍ يأخُذُه إلى الصُّنْع ، وأُخْبِرْتُ أنَّه وَقَع بنواحى مِصْر وما حَصَل لى منه شىء !؟ » فأخرجْتُ الألفَ

(١) الدرّاعة : جبة مشقوقة المقدم
(٢) الكراء : أجر المستأجر
(٣) الصنع : يريد صنع الله ولطفه
(٤) خلقة : بالية
(٥) التوريق : نسخ الكتب - على الورق - وتجليدها . وهو الورّاق

الدّينار وقلتُ له ، يقول لك : « هذه ثمرةُ صَبْرِك » ، فكاد والله يموتُ فرحا . فقلت له : « ليستْ دراهم وهى دنانير ! » . وانصرفت عنه وهو أحسنُ من فى سُوقه حالاً

قال لى أحمدُ بن وليد : واجتزت بعد ذلك فرأيت دُكّانه معمورةً ، وهو متصدِّرٌ فيها على أحسنِ حالٍ وأوفاها »

* * *

ابن الزنق والقاسم بن شعبة

٨ — وكان بنَحْوِ دارِ العُنْقودِ شيخٌ يتنخّس [1] فى الدَّوَابِّ — يُعْرَف بابن الزّنق — قد لَحِقَ بمصر أكابرَها ، ورأيتُه فى أيام أحمد ابن طولون قد عَلَتْ سِنه ، وضَعُف عن التصرُّف . وكان له ابنُ أختٍ — خفيفُ الروح ، مقبولُ الصورةِ ، حُلْوُ الألفاظ ، يتنخّس فى الدَّوابّ — نخف على قلب القاسم بن شُعبَة . وكان شُعْبةَ من أكابر أصحابِ أحمد بن طولون ، ومات فى طاعته ، فردّ إلى القاسمِ ابنِه إحدى الشُّرْطَتين بمصْر . فانصرَف ابنُ أخت ابن الزنق من عند القاسم وقد خَلَع عليه دُرّاعة خَزّ من تحتها جُبّة مُلَحّم ، [2] فنظر إليها خالُه ابن الزنق ، فقال : « ماهذه الخلعة الرائعة ؟ » ، فقال : « خلعها علىّ القائد . ! » ، يريد القاسم بن شُعْبَة . فقال : « يا بُنَىّ ! إن كنتَ تصبِر على التَدَلِّى معه فى مِحَنِه ، كما تتَدَلّى فى نِعَمِه . وإلاّ فاعتزِله . ولا تفضحنا بالتفرد عنه فى نَوائبه » ، فقال : « أرجو أنْ يصونَه اللهُ

---

(١) النخاس : بائع الدواب . ويتنخس فيها : يتجر

(٢) الملحم : ضرب من الثياب تختلف لحمته عن لحمة غيره فى نوعها

وما أنعمَ عليه به، من نائبةٍ تَلْحَقه، أو مكروهٍ يقع به »، فقال: «وأنا أرجُو هذا أيضاً له، ولكنْ ينبغي أن لا تَنْسَى نصيبَه منك في الشِّدَّة، كما عُنِيَ بك في النِّعْمة»

واتّصل بأحمد بن طولون عن القاسم بن شعبة شيءٌ أنكره، فحبسه ووكّل بداره جماعةً، واختفى النَّخّاسُ في دارِ خاله. فسأله بعد يومَيْن عن سبب مُلازَمته المنزل، فقال: «وَجَدتُ عِلّةً»، إلى أن اتّصل الخبرُ بالشَّيخ، فدخل إلى ابن أُختِه فقال: «قبَّحك الله! سرَقْت معروفَ هذا القائدِ، وخلّيته يُقارع شَجْوَه بمحْنَتِه؟!».

وأسرجَ حماراً له وركبه، وجيرانُه يناشدونه اللهَ ألَّا يَفْعَل، فقال: والله القَتْلُ أحسنُ مما أتى به هذا الوَغْدُ»

ثم قصد دارَ القاسمِ بن شُعبة ـ وعليها جماعةٌ من الموكَّلين وأصحاب الأخبار[1] ـ، فوقف على الباب فقال: «كيف حالُ القائد أبي محمد أيّده الله؟»، فقالوا: «امْضِ يا شَيخُ»، فقال: «ما أمْضِي حتى أُبْلِيَ عُذراً! هذا رجل قد لَزِمَتْني له عارِفةٌ، وهذا أوانُ قَضائها». فوقَع خبره إلى أحمد بن طولون فأحضره، وقال: «ما كنت تَعْمَله للقاسم ابن شعبة؟»، قال: «أَوْلاني في بعضِ أقاربي جميلاً، فانتَصَبْتُ الساعةَ لما يحتاجُ إليه؛ وما أحقَّ الأميرَ أن يَفْضُلَني بحُسْنِ المكافأةِ عن طاعةِ والدِه له، فقد كان مشهورا بها!»

فحدّثني أبو العباس الطَّرَسُوسِيّ. أنّ أحمد بن طولون قال له في

(١) أصحاب الأخبار: الجواسيس

هذا المجلس : « ما أحسن ما اهتدى هذا الشيخ إلى إذكاري بحق قاسمٍ وعَطَفني عليه ! » ، ثم أحضر القاسم بن شُعْبة وخَلَع عليه خِلْعةَ رِضًى ، وصَرَفه إلى منزله . وعَدَل الشيخ ولم يدخل معه داره ؛ وانصرف إلى بيته وقد قام بما قَعَد عنه ابنُ أخته

* * *

هارون بن ملول وابن تميم

٩ — وحدثني هارون بن مَلُّول ، قال :

لما مات أبي وَرِثتُ منه مالاً جَمًّا ومُسْتَغِلَّاتٍ نفيسةً ـ وكان يَقْصُرُني على زِيّ التجار ، ويَمْنَعُني من التَّخَرُّق (١) والسَّرَف في الهَيْئة ـ ، فعَمَدْتُ إلى أثوابِ وَشْيٍ سَعيدِيٍّ (٢) كانت في المتاجِر التي خَلَّفَها والدي فقطعْتُها ، وقَطَعْت لخدمٍ ـ أرتَبِطُهم للتجارة ـ من المُلَحَّم والدِّيباج مالا يتسمَّح به أحدٌ من أبناء التَّرَفه . وجلستُ في الوَشْيِ ، وقامَ الغلمان بين يديّ فيما قطعْته لهم

ووَافانا إسحق بن إبراهيم [بن تميم] مُفْتَقِدا ، فتأمَّلني فقال : «لقد سرني بُعْدُ يُتْمَتِك وحُسْنُ زِيِّك (٣) ، بارك الله عليك ، وأحسَن إليك !» .

ثم وَافى جماعةٌ من إخوان أبي وأصفيائِه ، فوالله ما أنكَر عليّ واحدٌ منهم ماخرجتُ إليه من زيّ أسلافي . فلما كان في عَشِيّ ذلك اليوم ، وافاني رسولُ إسحاق بن تميم : « عندي من لا تَحْتَشِمه ، فتُؤْنِس

(١) التخرق : التوسع في العطاء والمعيشة

(٢) وشي سعيدي : ضرب من برود اليمن موشية تعرف بالسعيدية ، منسوبة إلى سعيد بن العاص

(٣) اليتمة : حالة اليتيم ، ولم ترد في كتب اللغة

جَماعتنا بحُضورك ؟ فقد أعجبَنى اليومَ حُسْن زِيِّك ! » . فزدت فى الخِلْعة ورَكِبْتُ ، فلما دخلتُ إليه لم أَفقِد عنده أحدا من إخوان والدِى . فلمّا توسّطت الصَّحْنَ ابتدرَنى الغلمان ، وصاح بى إسحاق : « تتوهّم ياجاهلُ أنّ أباك مَضَى واسترَحْتَ ! ولا تعلمُ أنّ أباك خلَّف لك هؤلاء الآباء بأَسْرِهم يردُّونك عن الخطإ بأليم العقوبةِ ، ولا يَشْفَعون فى مصلحتك من عَظيمِ ما كان أبوك يَرِقُّ عنه فيك ؟ » ثم بُطِحت فى وسط الدار ، فصحتُ بهم : « يا سادتى ! والله ماقُرِعت قطُّ بِمِقْرَعةٍ ! » ، فقال إسحاق : « ولا أتيْتَ بمثلِ هذا الفعل ! » . وضُربت ضَرْباً مُبَرِّحا ، ولم تُرْفع المِقْرَعة عنّى حتى حلَفت لهم ألاّ أزيدَ على مَعْرِض والدى واقتِصاده ، فأقمت على هذا إلى اليوم »

وما زالَ عنه إلى أن تُوُفِّىَ

* * *

المؤلف وعراب من القيسية

١٠ — ولما استفحَل أمرُ ابنِ الخليج ، انحازَ عنه جيشُ مصر إلى الإسكندرية وخلَا الفُسطاط منهم ، وكنتُ بمدينة أهْناس (١) ، واضطربتِ النواحِى ، واحتجت إلى مُشاهدة الفسطاط . فتخفَّرت بأربعة نَفَرٍ من القيسيّة ، دَفعْت إليهم عشرين دينارا وخرجت معهم ، فأحسنُوا العِشْرة ، وأجملوا الصُّحْبة . وكنّا لانجتاز بحيٍّ ولا جماعة إلاّ كَفَوْنا مؤُونةَ كلامهم ، وصرَفوا عنّا بأسَهم . ولم يَزل كذلك

---

(١) أهناس : بلدة بالصعيد من عمل البهنسا

دَأْبُنا حتى بَلَغْنا قصر الجيزة ، فأقبلتْ رَعْلة من الأعراب [١] — قدَّرتُها برأيِ العين خمسين فارساً — كانت من غير حيِّهم ، فصمَّمَتْ نحوَنا بِرِمَاحها ، وعَمِلت على نَهْبنا وقَتْلِنا ، ورأيت الموت فى أسِنَّتِهم . وأحسنَ الأربعةُ — الذين تخفَّرْنا بهم — لقاءَها والتضرُّعَ إليهم ، وناشدُوهم ألاّ يُخفِروا ذِمَّتَهم ، وأجمَلُوا التأتِّىَ حتى انصرفوا [٢] .

وجَدَدْنا فى السَّير حتى انتهينا إلى حَىِّ المُخفِّرين لنا ، فقال المخفِّرُون : « قد بلغتَ إلى من تأمَنُه ، فحُطَّ رَحْلَك ، فما تستقِلُّ [٣] دوابُّك الزيادةَ على هذا السَّيْر » . فنزلت وتقدَّمْتُ إلى الغِلْمان فى إطْعامهم ، ولم أجِد للطعام مَسَاغاً من فَرْطِ ما لَحِقنى من الرَّوْع .

وعملت فى المخفِّرين هذه الأبيات :

جَزَى اللهُ خَيْرًا مَعْشَرًا حَقَنُوا دَمِى
وَقَدْ شُرِعَتْ نَحوِى المُثَقَّفَةُ السُّمْرُ

دَرَاهِمُهُمْ مَبْذُولةٌ لِضَعِيفِهِمْ
وأعْرَاضُهُمْ مِنْ دُونِهَا الغَفْرُ والسَّتْرُ

إذا ما أغارُوا واسْتَبَاحُوا غَنِيمةً
أغارَ عليْهِمْ فى رِحالِهِمُ الشُّكْرُ

وإنْ نَزَلُوا قُطْرًا مِنَ الأرْضِ شَاسِعاً
تَمَنَّى سِوَاهُ ألاّ يَكونَ بِهَا قُطْرُ

(١) الرعلة : القطعة من الخيل قدر عشرين

(٢) تأتى الشيء : ترفق له وأتاه من وجهه

(٣) تستقل : تحتمل

فلَحظنى واحدٌ منهم وأنا أكتُبها ، فظَنَّ أنِّى أكتُب إلى السلطان فأشتكى ماكان من الفُرْسَانِ الذين لَقُونا بقَصْرِ الجيزة ، فقال : « قد سَلَّمك اللهُ من أولئك القوم ، وقد أحسنوا إلينا فى حُسْن الإجابة لنَا ، فلا تَكْتُبْ فيهم بشىء » . فقلت : « والله ما كَتَبْتُ فيهم ولا فى غيرهم إلى السُّلْطان بشىء » ، فقال لى شيْخ من المخفِّرين - وقد قَرُب منِّى - : « فما تكتب ؟ » ، قلت : « أكتُب أبياتاً مدحتُكم فيها » ، فقال : « وإنك لَتَقْرِضُ الشِّعر ؟ » ، قلت : « نعم ! » ، قال : « أنشِدْنى على اسم الله » ، فأنشدته إيَّاها ، فقال : « بَرَّك الله ووَصَلَك ! » .

ثم صَاح بالثلاثة ، فلما اجتمعوا أنشدهم إياها ، فما خَرَم - شَهِدَ الله - حرفاً واحداً ، فعَجِبْتُ من حِفْظِه لها ولم أُعِدْ عليه حرفاً منها ، وتبيَّنت الفَرَح فى سائِرهم ، وحفِظوها بأجْمعهم . ثم صاح بهم الشيخ : « ما تَنْتَظِرون ؟ أرْحَضُوا[1] السَّوْءَةَ عنكُم » . فأدخلوا أيْدِيَهم فى جيوبهم ، وجَمَعُوا شيئا أخذه الشيخُ منهم ، ثم قال لى : « قد شكرنا صَنِيعَتَك ، والله لا نَجْمع بين شِعْرِك ووَفْرِك ! » ، ووَضَع العشرين الدِّينار بين يَدَىَّ فأكبَرْت ذلك وأعظَمْته . فقالوا لى : « الصوابُ ألّا يعلَمَ بها عشيرتُنَا ، فيرجع عليك منها أكثرُ مما خِفْتَه ممَّن لَقِيَك بقصْر الجيزة » . وركبتُ فسرتُ مع جمعٍ كثيرٍ منهم وهم ينشدون تلك الأبيات ، فالتمستُ أن يَقبلُوا منِّى بِرًّا فلم

(١) رحض الثوب : غسله من وسخه

أصِلْ إلى ذلك ، ورَأَوْا أنّ الشِّعْرَ أحسنُ موقعاً مِمَّا ملكته

* * *

المؤلف وعباسى

١١ — ونزل فى حارَتنا غلامٌ أمردُ تأخُذه العين ، وكنت أسلِّم عليه إذا اجتَزْت به ، كما أفعل هذا بغيره من جيرَتِى . فانصرفتُ يوماً إلى منزلى فوجدتُه قائماً على بابه ، فدفع إلىّ رقعةً يذكُرُ فيها أنه عبَّاسِىٌّ من وَلَدِ المأمونِ ، ويسْألنى فيها بِرَّه . ودخل من كان معى بدُخولى ، فقضيتُ شُغْلى بالجماعة حتّى انصرفُوا ، ووضعت المائدةَ بينى وبين العبَّاسىّ فأكَلْنا ، وهو يتأمَّلنى فلا يجد فىّ شيئاً قَدَّرَه . فلما غَسَل يدَه ، دفعتُ إليه ثلاثةَ دنانير ، واعتذرتُ إليه من تقصيرى فى حَقِّه ، وانصرفَ وقد رأيتُ تَبْجِيلى فى حَمَاليق عَيْنَيه

فلما كان بعد ذلك بسُنَيَّات[١] — وأنا فى ضياع تقبَّلتُ بها[٢] ولى فيها غَلَّةٌ[٣] بمالٍ جسيم ، خِفْتُ أن أدخُل الفسطاط فتَخْرَبَ الضياع وتتَعَطَّلَ عِمَارَتُهَا ؛ فكنتُ أكمنُ نهارًا فى بعض منازِل الفَلَّاحين ، وأظْهَرَ ليلاً فأعقِدُ منها ما تهيأ لى عَقْدُه[٤] . فإنى لكامنٌ فى يوم من الأيام حتى سمعت رَجَّة شديدةً ، فدَخَل إلىّ بعض

(١) تصغير سنوات

(٢) تقبل بخراج أو جباية : تكفل بها والتزمها بعقد

(٣) الغلة : الدخل من كراء دار ، أو أجر غلام ، أو فائدة أرض

(٤) يعقد منها : يريد يجمع منها

غِلْماني . فقال : « دَخَل أصحاب دُميانة الضَّيْعَةَ ، وعَمِلوا على نَقْل الغَلاَّت ! » ، وأيقنت بتَلَفِ أكثر ما أملِكه ، ثم سكَنَتْ أصْوَاتُهُم

ودخل إلىّ غلام لى فقال لى : « يامولاى ! كانت هذه الضِّياعُ قد أشْفَتْ على نَقْل مافيها [1] ، حتى نَظَرَ إلىَّ العَباسىُّ الذى كان فى جِوارنا ، فقال لى : « ألستَ غُلامَ أحمد بن يُوسف ؟ » قلتُ : « نعم ! » ، قال : « فهذه ضِيَاعه ؟ » ، قلت : « نعم ! » ، نصاح بالجماعةِ التى دَخَلَتْ من أصحاب دُميانة : « آخرجوا بأسْركم عنها » ، فخرجوا . ثم قال لى : « قل لمولاك : ياسَيِّدِى ! مَحَلِّى عند الأمير دميانة مَحَلُّ الأخ ، فاْظهَر واركب إليه ، فقد آمنك الله على نَفْسِك ومَالِك » . فسألت الغلام : « ماكان زِيُّه ؟ » ، فقال : « كان عليه كساءُ صوفٍ مما يُنام فيه ؛ وتحته خُفْتَانٌ » [2]

فأحضرتُ بعض مشايخ الضَّيعة ، وحملت معه إليه دُرَّاعةَ خَزٍّ كُحلِيّةً ، ومُطْرَفَ خزٍّ [3] ، وخمسين دينارا ، وسألته أن يَقْبَل مايحتاج إليه من ناحيتى . فقبِل الدُّرَّاعَة الخزّ ، وردَّ المُطْرَف والدنانير ، وقال لرسولى : « والله لَلثلاثة الدنانير ــ التى وَهَبها لى لِشَرَفى لا لشىءٍ مما ظننته به ــ أحسن موقعاً عندى مما رَدَدْته إليه ،

(١) أشفى على كذا : أشرف وقارب
(٢) الخفتان : ضرب من الثياب ، وكأنه قريب مما نسميه (القفطان)
(٣) المطرف : ثوب يكون فى أطرافه وشى وأعلام

فكثَّر الله فى الناس مثله !»

فلم يزل عَضُدًا لِي وسِتْرا علىَّ ، حتى انصرَف دميانة عن الناحية

* * *

يحيى بن نجه والرخجى

١٢ — وحدثنى يحيى بن الفُضَيْل ، عن يحيى بن نجه - وكان هذا الرجل حَسَنَ الكتابة - ، قال :

« تردَّدتُ إلى عُمَر بن فَرَج الرُّخَّجِىّ مُدّةً ، فدخلتُ عليه فى يوم من الأيام . فقال : « قد أنْضَيْناك [1] ! قد استَتْمَمْتَ فى هذا اليوم سنةً » ، ووقَّع لى بتقليد عَمَل سَنِيّ . واضطربت فيما أحتاج إلى التجهُّز به ، فلما لم يبقَ علىّ إلا نَصُّ [2] رِكابى ، بَرَّزْت ظَهْرى وثَقَلى [3] ، ووقفت على باب دارِ أمير المؤمنين المُنْتَصِر أنتظر توديعَ عُمَرَ والخروج إلى عملى . فرأيتُ غلمانَ عُمَر يتسلّلون فسألت عن السبب ، فقيل لى : « سَخِطَ أمير المؤمنين على عُمَر ! » خِرْتُ ، وخِفْتُ أنْ أرجعَ إلى مَنْزِلى فأخسَرَ جميعَ ما أنفقْتُه . فإنى لفى تلك الحَيْرَة حتَّى خرج عُمَرَ بن فرج ، ومعه رجُلٌ من شِيعَةِ بنى العباس ، فقال لى : «أين كُلُّ من كان معى ؟ »، فقلت « تَسَلَّلوا للحادث ! » ، فقال : «وقَدْ وُكِّل بِى هذا الشِّيعِىُّ على

---

(١) أنضاه : أتعبه

(٢) نص الركاب : تسييرها

(٣) الثقل : متاع المسافر وحشمه

أنْ يَنْفِيَنِى إلى بلاد التُرْك ، ولم أُعِدَّ شيئاً ولا أجد من يُعِدُّه لى » ، قلت : « هٰذِه قُبَّةٌ وظَهْرٌ يقِلُّك ، وأنا أصحبُك شكرا على ما أسْلفتنى من التَّقْليد »

فركب القُبَّةَ ، وأحضر الشِّيعى قُبَّةً له ، ورَكِبْنا وأنا أُعادِلُه[1] ، وانتهى المسيرُ بنا إلى خُرَاسان . وكنّا لا نُفْضِى من بُلدان خراسان إلى بَلدٍ إلا وجدناهُ أغلَظَ طَبْعاً من البلدِ الذى فارقناهُ ، حتى بلغْنا بُخارَى ، فرأينا قوماً فى نهايةٍ من غِلَظِ الطباع ، فقال لى - حِينَ رآنى أتعجَّبُ منهم - : « كيف لو رأيتَ التُّرك وبلدانَهم ؟ يقتُلون المُسْتَجِيرَ بهم ، ويُغِيرُ بعضهم على بعض ، فيَهْلِك النّازِعُ إليهم بينهم[2] ! » ، فزَادنى هذا القول تهيُّباً للسَّيْر معه ، ثم مَلَكتُ ما استغْرَبَ[3] منّى ، وتماسكتُ

وجَدَّ بنا السَّير عن بُخارى إلى أرضِ التُّرْك ، وإنى معه فى القُبَّة - وهو يُحَدِّثنى بشىءٍ قد شغَلَنى عن تَبَيُّنه ما يُقْلِقُنى من ركوبِ ما أقدمتُ عليه من الخَطَر - حتى سَمِعْنا حَلَق البَرِيد ، فتَشَوَّفْنا لها ، ووافى بها رَسول أمير المؤمنين وكتابُهُ بما أمَرَه بالحضرة : من الرِّضَا عنه ورَدِّه إلى مَرْتَبته ؛ ويأمُرُه فيه بكَشْفِ مُدُن خراسانَ ، وتجريدِ عُقُودها على أصْوَب ما استقرت عليه ، واستثارة التوفير بها والزيادة

---

(١) عادله : ركب معه فى الجانب الآخر من محمل البعير

(٢) النازع : الطارئ الغريب

(٣) ما استغرب منى : ما تباعد عنى من عزيمتى ورأيى

فيها . فلما استتم قراءته ؛ حَمِد الله وألقى الكتابَ إلىّ ؛ وقال : « باركَ الله لك فى الخلاصِ وهنّأك المَزيدَ » . وردّ إلىّ تأمل ما أمَر به أميرُ المؤمنين من كَشْف عُقُودِ النَّواحى »

فانصرفت إلى مَنزلى بمائة ألف دينار ؛ مع ارتهان شكرِ المعامِلين وإحْمادِ السلطان »[1]

* * *

والد المؤلف ومصطنعيه

١٣ — وحدّثنا أحمد بن يوسف ، قال :

« حَبَس أحمد بن طولون يوسفَ بن إبراهيم والدِى فى بعض داره — وكان اعتقال الرجل فى داره يُؤْيِس من خلاصه[2] — . فكاد سِتْرُه يَنهَتِك لخوف شَمْلِه عليه . وكان له جماعةٌ من أبناء السَّتْر يتحمّل مُؤَنَها ، مقيمة عليه لا تنقطع إلى غيره . فاجتمعوا — وكانوا زُهاءَ ثلاثين رجلا — فركبوا إلى دار أحمد بن طولون ، فوقفوا بباب له يعرف بباب الجبلِ ، واستأذنوا عليه فأذِن لهم . فدخلوا إليه ، وعنده محمد بن عبد الله بن الحَكم وجماعةٌ من أعلام مَسْتُورِى مصر ، فابتدروا كلامه بأن قالوا : « قد اتفَق لنا — أيّد الله الأمير — من حُضُورِ هذه الجماعةِ مجلسَه ، ما رَجَوْنا أن يكونَ ذريعة إلى ما نأمُله : ونحن نَرْغَب إلى الأميرِ فى أنْ يسألها عنّا ، ليقفَ على منازلِنا » . فسألهم عنهم ، فقالوا : « قد عُرِضَت العَدالةُ على أكثرهم فامتنع

(١) أحماد السلطان : رضى فعله ووجده مستحقا للحمد

(٢) آيسه الأمر : مثل أيأسه

منها »[1]

فأمَرَهم أحمد بن طولون بالجلوس؛ وسألهم تعريفَه ما قَصَدوا له؛ فقالوا: « ليس لنا أن نَسْألَ الأمير مخالفةَ ما أمَر به فى يوسف بن إبراهيم، لأنه أهْدَى إلى الصواب فيه، ونحن نَسألُه أن يُقدِّمنا إلى ما اعتَزَم عليه فيه: إن آثَرَ قتْلَه أن يَقْتُلنا؛ وإنْ آثَرَ غيرَ ذلك أن يُسْلِفَ بنا[2]، وهو فى حِلٍّ وسَعَة منه »، قال: « ولِم ذلك؟ »، فقالوا: « لنا ثلاثون سنة مافكَّرنا فى ٱبتِياع شىءٍ مما ٱحتَجْنا إليه؛ ولا وَقَفْنا ببابِ غيْرِه. ونحنُ والله أيُّها الأمير نَرْتَمِضُ[3] البَقَاء بعده من السَّلامة من شَىْء من المكروهِ وَقَع فيه »، وعجوا بالبكاء بين يديه. قال أحمد بن طولون: « بارَكَ الله عليكم فقدكافأتُم إحسانَه وجازَيتم إنعامَه »، ثم قال: « علىَّ بيوسف بن إبراهيم »، فأُحْضِر. فقال: « خُذُوا بيد صاحبِكم وانصرِفوا ». فخرجوا معه؛ وانصرف بهم إلى منزله »

* * *

المؤلف وبعض التجار

١٤ — قال:

« وطالبنى بعضُ عُمّالِ الخراج بمصر بمالٍ زاد على مافى حاصلى؛ فاحتجت إلى مُعاملة بعض التجار عليه؛ فدُللتُ على رجـل من

(١) العدالة: تزكية الشهود عند القاضى وتعديلهم، أى أن يقول إنهم عدول، وكانت من وظائف القضاء

(٢) يسلف بنا: يبدأ بنا ويجعلنا سالفا، والسلف: المتقدمون

(٣) ارتمض الرجل من الشىء: إذا اشتد فأقلقه كأنه يقف فى الرمضاء، وهى حر الحجارة من شدة حر الشمس

أهلِ الشام يعامل برُهون ؛ فصار إلىّ ـ وأنا فى بيت المال ـ منهُ شيخٌ حَسَنُ الصورة جميل اللِّقاء ، فقال : « إلى كم تحتاج ؟ » قلت : « إلى مائتَى دِينار » . فأخرج من كُمِّه مالا فوَزَنه ، واستزَاد من غلامٍ كان معه دنانيرَ حتى أكمل المائتين ، ثم سلَّمها إلىّ واقتضانى خطًّا بها ، وقال : « قد كُفِيتَ مؤونة الرّهن » ، فقلت : « فكيف أكتُب الخطَّ ؟ » ، قال : « بمائتى دينارٍ كما أعطيتك » ، فقلت له : « سبيلُ المعاملة غيرُ هذا ! » ، فقال : « والله لا قَبِلتُ منك فيها رَبحًا ، ولو وهبتُها لك لكان من أصغرِ حقُوقك علىّ » ، ثم قال لى : « تعرِفُنى ؟ » ، قلت : « لا ! »

قال : « ركبتُ مَرْكَبًا أريد الفُسطاط من تِنِّيس ، وحملت فيه تجارةً لى ما كنت أملك غيرَها ، حتى إذا بلغتُ المَحَلّة ووازَيْت ضياعا كانت فى يدك ، كُسِر بنا ، وغَرِق جميع ما أملكه ، وسلمْتُ بحُشاشة نفسى [1] . فجلستُ على الشطِّ أبكى وأنتحب ، فأقبلتَ فى جماعة معكَ فسألتنى عن حالى فأخبرتك بها ، فبثَثْتَ فى حَشْد من يغُوص على المركَب ومافيه وحَطَطْتَ على الشطّ ، فأخرجوا بَزًّا كان لى وتَلِفَ ما سواه ؛ واستحلفتنى على ماذهبَ لى فأخبرتُك به ـ وكانت قيمتُه سبعين دينارا ـ فقسَّمْتها لى على وُكَلائك وكتَّابك

(١) الحُشاشة : بقية رمق الحياة والروح فى المريض والغريق وحاشا كلامها

فلما حصلَتْ لى أعطيتنى دنانيرَ من عندك وقلت لى : «هذا أَرْشُ[1] ما لحِقك فى الثياب» ، وأمرتَ أن يُكترى [لى] إلى تِنّيس ، وكتبت لى إلى جماعة معامليك بتنيس بما لحقنى ، وبمعونتى على أمرى ، فرجع بك إلىَّ ما أَمْلِكُ ، واكتسبت جاهاً بتِنّيس تضاعف مالى به ، وحسنت معه حالى»

« وأخذ خطّى بالمال وانصرف »

* * *

أحمد بن بسطام وصاعد

١٥ — وسمعت أبا العباس أحمدَ بن بِسْطام يُحدِّث أبا الطيب أحمد بن على ، قال :

« لمّا سَخِط الموفّق على صاعدٍ وكّل به من يطالبه ، وأقرّنى والطائىّ على ما كنا نتقلّده له . وكان صاعدٌ محسناً إلينا ، جميلَ العِشْرة لنا ، فلم نترك شيئا نصل إليه مما خفّف عنه إلاّ بَلَغْناه . وكانت بينى وبين الطائى إِحْنَة[2] ، فدعانى الموفّق فى يوم من الأيام ـ ونحن بواسِط وقد بَلَح[3] صاعدٌ ، واستنزل المستخرج جميعَ ما وصل إليه منه ـ ، فقال لى : « أحمدُ ! ادخُلْ إلى صاعدٍ فقل له : أظُنُّك أرْضَيتَ المستخرِجَ حتّى فَتَر فى مطالبتك ، وتالله لئن لم تخرج مُحْتَجِبَك ، لأتولَّيَنّ تعذيبَك بنفسى ! »

فدخلت إليه وأدّيْت الرسالةَ ، فقال لى : « يا أحمد ! والله ما بقىَ

---

(١) الأرش : دية الجراحات والجنايات التى ليس لها قدر معلوم وهو الذى نسميه «التعويض»

(٢) إحنة : حقد وعداوة

(٣) بلح : أفلس

لى شىءٌ ، وما ملكتُ قطّ ماهو أحبُّ إلىّ من نفسى ، فتقول له : ياسيّدى ! والله ما أملِك على الأرض ولا فيها ديناراً ولا درهماولا جوهراً ، وأنت أولى بالتطوّل على خادمك » . فانصرفت من عنده وأنا أخاف أن يُغرِيَه ذلك الجوابُ . ودخلتُ إليه وقلت له : يقول لك : « ياسيدى ! ما أملك على وجه الأرضِ ولا بطنِها غير مائةِ ألف دينارٍ عند الطائىّ » . فأمر بإحضاره ، فلما مَثَل بين يديه ، قال له : « المائةُ الألف الدينار التى لصاعدٍ عندك ، قد بعث إلىّ يحلِف أنه لايملك غيرها » . فقال له : « وهى بمدينةِ السَّلام ، فيُنْظِرنى الأميرُ مسافةَ الطريق ، وأنا أستسْلِف له ما تيسَّر منها من التجار هاهنا ؟ » . فقال له : « اكتُب خطَّك بها » . فكتبه وسلّمه إلى الموفّق ، فسلّمه إلى غلامٍ من خاصّته ، وانصرف الطائىّ

فاستقبحت ماصَدَر مِنّى فيه ، وعَظُم فى نفسى لتصديقِه صاحبَه ، وتركِ معارضته بما يدفعُ به المرءُ عن نفسه . فدنوتُ من الموفّق وقلت له : « أيُّها الأمير ! جميع ما أدّيتُه إليكَ عن صاعدٍ مِنى تقوّلتُه ، وقد قَبُح فى عينى ، وسيدى الأمير مخيّرٌ بين الصفح عنه والعقوبة عليه » . فقال : « أحسنت ! بارك الله عليك » . ثم أمر بردّ الطائى ، فقال : « لِمَ لمْ تتقرّب إلىّ بذِكْر هذا المال ؟ » فقال : « أيها الأمير ! يمنعنى من ذلك ماتوَلاّه من اصطناعى » فقال له : « ليس يُمنعنى إلاّ أن تحلف برأسى على هذا المال ، وفى أى وقت

(١) تطوّل عليه : تفضل عليه وأحسن إليه

دَفعه إليك » . فقال : « يعفينى الأميرُ من ذلك » . فقال : « والله لافعلتُ » . فقال : « وحقِّ رأسِ الأميرِ ماله عندى درهم واحد فضلا عنه ، ولكنى لما رأيتُه قد عاذَ بالدعوى علىَّ ، تيقّنتُ أنه لم يبق له حيلة فى المدافعة عن نفسه ، فعملت على تحمُّل هذا المال ، ووالله ما أملكه ، ورجوتُ أن أصِلَ إليه بجاهى ولطيفِ حِيلتى »

فاستحضر الموفّق الخطّ ودفعه إلى الطائى ، فقال له : « خَرِّقْه » . ثم تقدّم بإعفاء صاعد من المطالبة »

* * *

نجاح بن سلمة وابن تميم

١٦ — وكان نجاح بن سَلَمة ـ مع ما يؤثَر عنه من زَعَارة أخلاقِه ، [1] وقبح تسلُّطه ـ يحبُّ التبسُّط على طعامه ، ويحسن المكافأة عليه . فحدثنى يعقوب بن إسحاق بن تميم ، قال :

أقام إسحاق والدى ببغدادَ خمساً وعشرين سنة فى رفع حِسابه ، ينقُض الكُتّاب جَمَاعَاته ويسلّطون الإعناتَ عليه ، قال لى يعقوب ، فحدثنى أبى : أنّ أغلظَ الكتّابِ بأسْرهم كان عليه ، نجاحُ بن سلمة . قال : «فلما أفرط علىّ سوءُ تحكمه ، جلست فى منزلى . فمرَّ به آسمى، فقال : « قد عزم إسحاق بن تميم على أن يتربَّص بنا كما كان يتربَّص بمن كان قبلنا ؟ » . ثم نظر إلى بعض المضمومين إليه فقال : « بكِّر إلى إسحاق ابن تميم فأحضِره الدارَ إلى أن أنصرف » . قال : فباكرنى فَظٌّ من الجُنْد لم أملكْ نفسى معه حتى صار [بى] إلى دار نجاح ، فوجدناه

---

(١) الزعارة : الشراسة وسوء الخلق

قد ركب

فحصّلنى على البابِ وجلس معى (١) ، وتعالَى النهار واشتدّ جوعى ؛ فقلت له : « امضِ معى إلى المنزل لنأكل جميعاً ونرجع ! » فأبَى . فقلت لحاجب نجاح ـ ورأيته متمكّناً من داره : ـ « أصلحك الله ؛ إنى قليل الصبر على الجوع ، وأخاف أن يتأخر الأُستاذ وأضعُفَ عن حُجتى فى حضوره لغَلَبة الصّفْراء علىّ ، وقد سألتُ هذا الرجل أن يُطْلق لى الذهابَ إلى منزلى لآكل وأرجعَ فأبَى » ، قال : « لِمَ لا تأكل هاهنا ؟ » . وأجلسنى فى بُشّخانة (٢) فيها ، واستحضر الطعام ؛ فأُحضرت مائدةُ نجاح بن سلمة ، ولم يبقَ حُلوٌ ولا حامِضٌ ولا حار ولا باردٌ إلا نُقِّل علينا . حتى إذا بلغتُ إلى الحَلْواء من الطعام ؛ دخل الدار نجاحٌ فجلس فى المجالس ، ورآنى فى دخوله ، ومكانى من البشخانة (٢) ، فبعث إلىّ غلاما له [يقول] : « بحياتى استَتِمّ أكلَك ولا تتجوّزْ فيه » . فأقمت حتى فرغ الطعامُ ، وجاؤنى بالغُسْـل والبَخُور ، ثم قمتُ . فلما رآنى ضحك إلىّ وقال : « من علّمك على هذا ؟ » ، قلت : « التوفيق » ، قال : « أجل ! » ، ثم قال لى : « ارفع حِسابك كيف شئتَ وشِئْه ، فقد أمّنك اللهُ من اعتراضك بشىءٍ تكرهه » .

---

(١) حصّله على الباب : يريد ، وصل به إليه وأبقاه

(٢) فى الأصل : « نشخانه » فى الموضعين ، وأقرب ما أعرف إلى هذا الرسم هو : « بشخانه » قال الخفاجى : يقال لها الناموسية ، عامية معربة « بشه خانه » أى بيت البعوض . أو كما أخبرنى بعضهم أنها بيت الحاجب

قال يعقوب : قال لى أبى : « فغدوتُ إليه بحسابى ، فوالله مازاد على التوقيع فى الجِمَاعات بإمضائها وتخليدها . ثم قال : « متى تعزم على بلدك ؟ » ، فقلت : « ياسيدى ! إنما أنتظرُ فيه إذْنك ، فكل شىء لى مفروغٌ منه » ، فقال : « اجعلْه بعد صلاة الجمعة » ، قلت : « أفعلُ » . ثم قال لى : « تروح إلىّ لألقاك فى حوائجَ لى ؟ » ، فقدّرتُ أنْ يحمِّلنى فى الحوائج غُرْم الألف الدينار

فلما رحتُ إليه ، دخلتُ وهو خالٍ ، فقال لى : « إنك ترجع إلى بلدٍ قد يَئِس منك فيه أهلُه ، فأدخلَ الجارُ من جيرانك الخشبةَ فى حائطِك ، والجارُ فى البستان قد تحيّف حدودَك [1] ، فهب لى ما بينَك وبينهم » . قلت : « أفعل »

قال : « وترى ببلدك جماعة قد ارتفعُوا ، أبناءَ خاملين ، فلا تنهرْهم بدِقّةِ [2] أُصولِهم . وانصرِفْ [3] عما كان عليه سَلَفُهم ، فإنه يزرعُ لك المقتَ فى قُلوبهم » . قلت : « أفعلُ »

قال : « وأصحابَ البريد ، فاحذَرْ أن يرِد فى كتُبهم ذكرٌ لك بخير ولا شرّ » . قلت : « أفعل »

ثم أومَى إلىّ يعانقنى ، قلت : « ياسيدى ! حوائجك ؟ » . قال : « هى ماعددته عليك . إنك قد حللت منّى بانبساطك محلَّ القرابة

---

(١) تحيف الشىء : نقصه وأخذ من جوانبه وحافاته وأطرافه

(٢) دقة الأصل : خسته ولؤمه

(٣) فى الأصل . والصدق

الذى أُسَرّ بصوابه ، ويَغُمُّنى زَلَله ، فإن حَزَبَك[١] أمرٌ فى بلدك فلا تعدِل به عنى ، وأنا أستودعك الله »

« فانصرفت عنه وأنا على غايةٍ من الشكر »

✿ ✿ ✿

محمد بن يزيد ومسافر

١٧ — وحدثنى محمد بن يزيد — وكان حَسَنَ التقشُّف ، سديدَ الرأى — قال :

أُطْلِق جماعةٌ من حبس أحمد بن طولون كانت قد وقعت بهم ظِنَّةٌ بالتلصُّص ، وكانوا ينزلون كُورة أَهْناس . فإنى عند بعض أصحابِ الأكسِيَة حتى وافاه غلامٌ أصفر ، خبيثُ المنظر ، متمكِّن من نفسه ، من الخارجين من الحبس ، فرحَّب به ، وجلس عنده ، وهنّأه بسلامته . ثم سأل عن حالِه ، فقال : « خرجتُ من الحبس كما تراني ، وما معى نفقةٌ تبلِّغُنى منزلى »

فقلت له : « ما آسْمُك ؟ » ، فقال : « مسافر » ، فقلت له : « يافتى ! قدِّم اللهَ فى أمورك ولا تعدِلْ عنه ، فإن الراحةَ فى ظلِّه » ، فقال لى : « ياسيدى ! الحقُّ فيما قلتَه ، والنفسُ أمّارة بالسوء ، والتوفيق إلى الله دون خَلْقِه » ، فأعجبنى جوابه ، وقلت له : « كم يكفيكَ إلى منزلك ؟ » فقال : « دينار » ، ودفعته إليه وقلت له : « إذا حدَّثَتك نفسُك بحاجةِ السبيلِ فابعث إلىَّ حتى أُمسِكَ من رَمَقِك ، و[illegible]

---

(١) حزبه [illegible] اشتد عليه وضغطه

فما مضى شهر حتى اضطربت ناحية أهْناس والبَهْنَسا بتسلُّط رَجُلٍ من اللصوص ـ فى جمع كثير ، على كثيرٍ من المواضع ، وكَبْسِهم الضياعَ . وكانت لى أسْلافٌ (١) بسُمُسْطا ونواحيها ، فخرجت لقَبْضها فى رُفْقةٍ من التجّار ، قَدْ حملوا البَزَّ والطّيب وما يُحتاج إليه للأرياف . فإنّا بنواحى المحرَّقة ، حتى لقينا قطعةً من اللصوص ، فساقتنا بأسْرِنا إلى موضع منقطع عن المارّة ، وفيه شابٌّ أصفرُ راكبَ فرسٍ ، ومعه مقدار خمسة فوارس ، فعُرِضت الجماعةُ عليه إلى أن بَلغنى ، فتأملتُهُ فوجدته « مسافراً » ، فأكبَّ على رأسى وتحَفَّى بِى (٢) ، ثم قال لأصحابه : « أخطأ والله حَزْرُكم (٣) . هذه رُفقة شيخى وسيّدى ، ووالله لادخَلَ إلىَّ منها شىء » . وسار معنا حتى أخرجنا إلى الأمن ، ثم قال لى : « أنا أعلم أنك لا تأكلُ طعامى ، ولا تقبلُ شيئاً منّى ، وقد والله ياسيدى حبَّبْتَ إلىَّ مجانبةَ ما أنا بسَبيله ، فنشَدْتُك الله لَمَا جعلتنى طريقَك فى الرَّجْعَة ! » . فتضمنت له ذلك

ودخلنا مدينة أهْنَاس ، فشاع خَبَرُ ما أولانى فى الناس . وكان المتقلِّدُ لها رجلاً من أصحاب أحمد بن طُولون ـ يُعرَف بفَهْم ـ

---

(١) الأسلاف : القروض ، جمع سلف وهو القرض بغير فائدة

(٢) تحفى به احتفى ، وبالغ فى إظهار السرور والفرح به ، وأكثر السؤال عن حاله

(٣) الحزر : التقدير ، حزر الشىء قدّره بالظنّ

مُتقدِّمًا عنده ، أثيراً لديه [1] فبعث إلىَّ ، وعَرَف مذهبي ، فقال : « قد أحفيتُ المسألةَ عن هذا الغُلامِ ، فرأيتُه لايرى القتْلَ ، ولا هَتْك الحريم ، وإنما يتعلَّقُ بأطرافِ الأموال ولا يبلُغ الإجْتِياح [2] . وأنا أسألك أن تَسْفِرَ بيني وبينه [3] ، فإني أُؤَمِّنه وأُكرِمه وأُقلِّدُه سِيارَة البلد » . فرجعتُ فى حاجة فهْم إليه ، فألقيته والجماعةُ بين يديه ، فأدَّيت إليه رسالتَه ، وأعلمته أنَّ هذا الرَّجلَ صحيح الضَّمان ، فقال : « ياسيدى ! ما بينى وبينه فى الأعمال إلاَّ أُنْسُ الناس به » . ثم قال لأصحابه : « مَنْ يساعدنى على الخروج إلى الله عز وجل ؟ » ، فقالوا بأجمعهم : « نحن ! » . فسار معى حتى إذا قَرُبنا من أهناس ، وضَع حبلًا فى عنقه وقال : « ادخُل بى فى زِيِّ الأسْرَى وهذه الجماعةِ » ، فدخلوا ، والناس يبكونَ لما اتَّفق لهم من حُسْن الهداية ، ورأى الناسُ عَجَبًا من سَوْق شيخ مثلى ضعيفٍ رجلًا قد أعجز خَيْلَ السلطان . فطلب فهْم أن يقبلَ له خِلْعَةً ، فامتنع من ذلك ، وأضاف أصحابه إلى فَهْم ، وأقام إلى وقت الحجِّ فخرجَ إلى مكة راجلاً . ثم فقدتُه »

* * *

المقرى وراعى غنم

١٨ — وحدَّثنى أبو حبيب المقرى . قال :

---

(١) الأثير : المحبوب المقرب المقدم على غيره

(٢) الاجتياح : الاستئصال والمحو

(٣) سفر بين الشخاصين : سعى بينهما فى الإصلاح

« ضاقتْ أحْوالى ، فلم يبقَ لى إلّا جارية أُحبُّها ، ومنزِلا أسكنُه . فبعتُ المنزلَ بألف دينار ، وخرجتُ إلى مكة بالجارية ، فقلت لها : « يكون هذا المـال فى وسطك » فكانت إذا نزلت فى منزلٍ حفَرتْ فى خَيْمتها حَفِيرةً ، وأودعت المـالَ فيها وطَمَّتها (١) . فإذا نُودِىَ بالرحيل أثارته وشَدَّتْه فى وَسَطها

قال : فاتفَّق أنْ رَحَلنا عن مَنْهَلٍ ونسيَتِ المـالَ فى الحفْرة ، فأخبرتْنى الجاريةُ بذلك ، قال : فحارَ فِكْرى ، وطاشَ رُوعى (٢) ، ولم أدرِ ما أعمل . ودخلنا مكّة ، فحدثتْنى نفسى ببَيْعها فلم يُطِعْنى قلبى . فلمـا رَجَعنا ونزلنا المَنْهل الذى خلَّفت فيـه الـكِيسَ ، رأيت صحراء ، وغلامٌ على رابيةٍ يرعى غُنيماتٍ له ، وأقبلتُ أدور وأنظُر إلى الأرض ، فقال لى : « ويْحَك ! ما تطلُب ؟ » ، قلت شيئاً أوْدعته أرضَ هذا المَنْهَل » ، فقال لى : « صِفْه لى » ، قلت : « كيسٌ أحمرُ فيه مال » . فقال : « ومالِىَ فيه إن دَلَلْتك عليه ؟ » ، قلت : « نصفُه ! » ، قال : « ها هو ذاك فى الرابية » . فلمـا رَأى تحيُّرى فيـــه ، قام حتى أخرجه ووضَعه بين يدىّ ، فحمدت الله ، وقسمت الـكِيسَ قسمين وخيَّرته أحَدَهما ، فقال لى : « إنى أرى قِسْمِى منه كثيرا . وأنا أكتفى بنصف أحَد القسمين » ، فقسمته بقسمين ، فقال : « تَقْسِمه أيضاً بقسمين » ،

---

(١) طم الحفرة : كبسها ، بالتراب

(٢) الروع : القلب

ففعلتُ ، فقال : « ما أعجب أمرك ! أتْرُكُه كله حراماً ، ونصفَه حلالّا ، وآخذ منه شيئا ! هذا مالا يكون ، آنصرف بمـالِك » .
فقلت له : « يا غلام ! أنت حرٌّ أو مملوك ؟ » ، فقال : « مملوك » ، فقلت : « لمن ؟ » ، فقال : « لشيخ هذا الحىّ »

فدخلت الحىّ فألفيت الشيخَ والناسُ عندَه ، فقلت له : « رأيتُ غلاماً فى المنهل يرعى غُنَيْماتٍ وأسألك أن تبيعنيه » ، فقال : « اشتريتُه بعَشرة دنانير » ، فقلت : « أنا آخُذُه بعشرين » ، فقال : « إن لم أبِعْه ؟ » ، قلت : « أعطيـك به ثلاثين ديناراً » ، فقال لمن حوله : « أمَا تسمعون مايقول ؟ ومايحمِلُك على أن تبذُل به هذا الثَّمن ؟ » ، فقلتُ : « جمعَ علىّ ضالَّةً ، فنَذَرْتُ أنْ أُعْتِقه وأبتاع الغنم يرعاها له ، وأُمَلِّكهُ إيّاها » ، فقال : « نَذَرْتَ أن تفعل به هذا لَفَعْلةٍ واحدةٍ من الجميل أوْلا كَهَا[1] ، ولنا فى كل يوم منذ ملكناهُ حسنة تقتضى أكثرَ ممـا نأتيه له ؟ وأنا أُشْهِد الجماعةَ أنه حرٌّ لوجه الله ، وأنّ مايرعاه له »

فانصرفت عن الشيخ وقد بلَغ بى ماأمَّلتُه له »

* * *

ابن أبى عصمة وابن طغان

١٩ — وقلت يوما لأحمد بن محمد المعروف بابن أبى عِصْمة كاتب أحمد بن طُغَان ـ وكان لِى صديقا مُصافِيا ـ : «قد كثَّر الناس

---

(١) أولاه الجميل : فعله ابتداء من غير مكافأة على جميل سابق

فى إصَابتك [١] مع آبنِ طُغَان ! » ، فقال : « ما أخطئوا فى التكثير ، وكان صاحبى سَمْحًا [٢] ؛ ولقد أصابنى منه فى جهةٍ واحدةٍ ثلاثون ألف دينار » ، فسأَلته عن تلك الجهة ، فقال : « كان لا يُمسِكُ مالًا ، ولا يعتقِدُ ذَخِيرَة [٣] ، فقال لى يوما : « لم يُصبح فى حاصلى درهمٌ واحد ، فاستسلفْ لى شيئاً أنفقه » . فمضيتُ إلى منزلى فحملتُ إليه ألفَ دينار . فلما وضعتُها بين يديه ، فتَح الكِيسَ وقلّب مافيه ، فلما رأى الدنانير صِحاحاً جيدة ، قال : « ما هٰذه دنانير صَيْرَفِيٍّ ، فبِحياتى ممَّن أخذْتها ؟ » ، فقلت له : « كانت عندى » ، فقال : « ماظننت هٰذا موضعك ! » ، وسكت

وكان له فى كل شهر ألفَ دينار نُزْلٌ [٤] ، فجئتُه به عند آستيجابه إيّاه ، فقال لى : « ما هذا ؟ » ، قلتُ : « النُّزْلُ » ، فقال : « آقضِ به دنانيرَ الرَّجل » . ثم جئته به مرة أخرى بنُزْل الشهر الثانى ، فقال : « اصرِفْه إلى الرَّجل » ، قلت : « قد قضيتُه ! » ، فقال : « اصرفه إليه كما آمُرك » . فلم يزل يفعلُ بى هذا حتّى مضى ثلاثون شهرا حصَّلت فيها ثلاثين ألف دينار »

---

(١) كثروا فى إصابتك معه ، أى : أكثروا وتزيدوا فى تقدير ما استفاده من الأموال

(٢) السمح : الجواد السخىّ السهل العطاء

(٣) الذخيرة : مايدخره الرجل ويحفظه . واعتقدها : أمسكها وجمعها وكأنه عقد عليها عقدة

(٤) النزل : رزق العامل وأجره — (المرتب)

* * *

نصراني ومستتر

٢٠ — حدثني هرون بن مَـلُّول ، قال ، حـدثني ياسين بن زُرَارَةَ ، قال :

« كان ببعض أريافِ مصر نَصْرانيٌّ من أهلِها كثيرُ المـالِ ، فاشِي النِّعمة ، سَمْحُ النَّفْس ؛ وكانت له دارُ ضيافةٍ ، وجِرَاياتٌ[١] واسعـةٌ على ذوى السِّـتْر بالفُسطاطِ . فهَرب من المتوكّل رجلٌ - كَنَى عن اسمه - خطيرُ المنزلة ، لميلٍ كان من المنتصِر إليه ، وتبرّأ من حاشيته ولبسَ جُبّة صوف ، فانتهى به المسير إلى مصر . فلما دخلها رأى فيها كثيراً من أهل بغداذ ، فخاف أن يُعرَف فنَزَع إلى أرْيافها[٢] ، فانتهى به المسـير إلى ضِيَاع النَّصراني ، فرأى فيها منه رَجلًا جميلَ الأمر . وسأله النصرانيُّ عن حاله ، فذكر أنّ الإختلالَ[٣] انتهى به إلى ماظهر عليه ، فغـيّر هَيْأَتَهُ . وفوَّض إليـه شيئا من أمره ، فأحكمَه فيما أَسْنَدَ إليه واضْطَلَع به . ولم يزل حاله يتزايد عندَه حتى غلب على جميع أمره ، وقام به أحسن قيام ، فكان محلُّ الرجـلِ الهاربِ من النصرانيّ ، يفضُـل كلّ ما ذَهَب له

ووَرَد على النصرانيّ مُسْتَحِثٌّ[٤] بحَمْلِ مال وجَبَ عليه ،

(١) الجراية : الصدقة الجارية التي لاتنقطع
(٢) نزع إلى الريف : تباعد إليه في رحلته
(٣) اختلّ الرجل : افتقر واحتاج ، والخلة : الحاجة والفقر
(٤) المستحث : الذي يستحثه ويستعجله

[وسأله] النصرانىُّ عن خبَرَ الناس بالفُسْطاط ، فقال : « ورد خَبرَ قتلِ المتوكل وتقلُّد المنتصر ، ووافَى رسولٌ من المنتصر فى طلبِ رجل هرَب فى أيام المتوكل يُعرَف بفلان بن فلان ، ويُوعِزُ إلى عمّال مصر والشام بأن يتلقَّوْه بالتّكْرِمة والتّوْسِعةِ ، فيلحقَ أميرَ المؤمنين فى حال تُشْبِهُ محلّه عنده »

فعدل النصرانى بالمستحِثّ إلى بعض من أنزله عليه ، وخلا الهاربُ بالنصرانىّ فقال : « أحسن اللهُ جزَاءَك ! فقد أوليْتَ غايةَ الجميل ، وأحتاج إلى أن تأذنَ لى فى دُخول الفُسْطاط » ، فقال : « ياهذا ! إن كنتَ استقصَرْتَنى [1] فاَحتَكِم فى مالى ، فإنى لا أردُّ أمرَكَ ، ولا أزول عن حُكمْك ، ولا تنأى عنى » ، فقال له : « أنا الرجلُ المطلوبُ بالفُسطاط ، وقد خلفتُ شَمْلا جَمًّا ونعمةً واسعة ، وإنما عَدلَ بى الخوف على نفسى » ، فقال له : « ياسيدى ! فالمالُ فى يدك ، وما عندك من الدوابّ فأنت أعرفُ به منّى ، فاَحتكم فيه » فأخذ بغالا وما صلَح لمثله ، وخرج النصرانى معه ، وقدّم كتاباً إلى عامل المَعونة [2] من مُسْتَقَرّه ، فتلقّاه عاملُ المعونة فى بعضِ طريقِه ، ووصَّاه وجميعَ العُمّال بالنصرانىّ . وصار إلى الحضرة ، فأصدر إليهم الكتُبَ فى الوَصاة به ؛ إلى أن قدم بعضُ العمال المُتَّجِرة ، [3]

---

(١) استقصره : وجده مقصراً

(٢) عمل المعونة كان من أكبر وظائف الدولة كولاية الخراج

(٣) يريد العمال الذين يجعلون سلطان عملهم تجارة ، فيظلمون الناس ليتكسبوا منهم

فتتبّع النصرانىّ ورامَ الزيادةَ عليه، فخرج إلى بغداذ

قال لى هرون، أنّ ياسين قال له، أنّ النصرانى حدّثه، : أنه دخل بغداذ فلم يرَ بها أوْفَى محلا وأكثر قاصداً منه

«ثم استأذنت عليه وعنده جمعٌ كثير، فخرج أكثرُ غِلْمانه حتى استقبلونى، فلما رآنى قام على رجليه ثم قال : «مرحباً بأستاذى وكافِلى والقائم بِى حين قَعد الناس عنّى»، وأجلسنى معه. وانكبَّ علىّ ولدُه وشَمْله، وأنا أتأمّل مواقعَ الإحسان من الأحرار. وسألنى عن حالى فى ضِياعى، فأخبرته خبر العامل، وكان أخوه فى مجلسه، فنظرَ إليه من كُنّا عنده وقال له : «كنتُ السبب فى تقليدِ أخيك، فصار أكبرَ سبب فى مَسَاءتى!». فكتَب من مجلسه كتاباً إليه بجليّةِ الخبر وأنفذه. وأقمتُ عنده حوْلا فى أرغد عِيشة وأعظم تَرَفُّهٍ. وورد علىّ كُتُب أصحابى، فخبّرونى بانصراف العامل عن جميع ما كان اعترضَ عليه فى أمرى، وأخرج أمرَ السلطان فى إسقاط أكثر خرَاج ضِياعى، والاقتصار بى على يسيرٍ من مالها»

قال ياسين، فكتب النصرانىُّ ببغداذ حجة [1] أشهَد فيها على نفسه أنّ أسهُمَه فى جميع الضياع التى فى يده — وسمّاها وحدّدَها — لهذا الرجل الذى كان هرب، وصار بها إليه، فقال له : «قد سوّغك الله هذه الضياعَ، [2] فإنى أراك أحق بها من سائرِ الناس».

---

(1) الحجة : كتاب يكتب ليكون وثيقة وحجة

(2) سوغه الشىء، أى جعله له سائغاً سهلا

فامتنع الرجلُ من ذلك ، وقال له : « عليك فيها عاداتٌ تُحسِّن ذِكْرَك ، وتردُّ الأضغانَ عنك ، ولست أقطعُها بقَبْض هذه الضياع عنك »

ورجع النصرانى إلى الفسطاط فجدّد الشهادة له فيها . فلما تُوُفّى النصرانىّ أقرّها فى يد أقاربه ، ولم يزالوا معه بأفضل حال»

✲ ✲ ✲

يحيى البرمكى والفضل بن سهل

٢١ — حدثنى أحمد بن أبى يعقوب عن أبيه ، قال :

«كان يحيى بن خالد بن بَرْمَك قد تبنّى الفضلَ بن سهلٍ وأجراه مُجْرَى الوَلَد - ونظر إليه ولَدُه بعينِ الأخِ لهم - . فضمّه إلى المأمون . وكان يحيى بن خالد حَسَنَ المعرفة بالنجوم ، والفضلُ بارعًا فيها ، فاتّفقا على ما تُوجِبهُ النجوم فى مُدَد البرامكة[1] ، وتبيّنا سعادةً تنتهى إليها حالُ الفَضْل ، وكان كلٌّ واحدٍ منهما كالمشاهد لما آنتَهى إليه

وأوقع الرشيدُ بالبرامكة ، فاعتَصم الفضلُ بمحلّه من خِدْمة المأمون ؛ وكانت يده تَعجِز عمّا يُصلِحُ يحيى وولدَه عند الرّشيد ، فوجه إليه : « سيدى ! قد كَرَبنى أمرُك[2] ، ولستُ أصِل إلى

(١) المدد : جمع مدة ، ويريد : مدد بقاء سلطان البرامكة

(٢) كربه الأمر : ضيق عليه الكرب وشدده

حُسْن الدِّفاع عنك ، فأحِلَّ ذِمَامَهُ فى هذه المِحْنَة [1] ؛ فإنى أرجو أن أقضيَه عنكَ عندَ انتهائى إلى سعادتى »

قال ابن أبى يعقوب : فحدثنى أحمد بن أبى خالد الأحول ، قال : « اتَّصل بى من ضِيق يحيى ما كدَّر عَيْشى . وذكرتُ إحسانَه إلىَّ ، وحُسْنَ صَنِيعِه بى ، فضاق بىَ العَرِيض . ووجدت ماأملكُهُ أربعة آلاف دينار ، فقسمتُها قسمين ، وحملتُ أحدَهما ، وتوصَّلت إلى الدخول إليهم فى مَحْبِسهم ، فوضعتها بين يدى يحيى ابن خالد ، فقال لى : « ليس يَحْسُن بنا أن نَغُرَّك من أنفسنا ، ولا أن نَعِدَك عنا مالا تَفِى به الأيام لك ، وقد انتهى أمرُنا ، فإن كنتَ تُقدِّر أن أحوالنا تصلُحُ فأمسِك عليك مالك » ، فقلت : « ماذهبتُ فى ذلك إلا لقَضاء بعض الحق عَنِّى » . فأخذ بيضاءَ [2] فكتب فيها : « ياأبا العباس أيّدك الله ! هـذا رجل خَلَصَ على تجربتنا [3] ، وأحسَنَ بنا مع استحكام يأسِه منا ، وأنا أذكِّرك العهدَ ، وأرغبُ إليك فى قضاء حقّه عنى ، وتخفيفِ ثِقْله علىَّ ، أحسَنَ الله عونك ، وكفاك ماأعْجَزَك » . ثم ثَناها وقطعَها عرْضا بقطعتين ، وقال لى : « احفظ هـذا النِّصْفَ معك ، ولا تفرِطْ فيه فيفوتَك حظٌّ كبيرٌ » .

---

(١) الذمام : العهد والميثاق ، وأحل الذمام : جعله حلالا لايلتزم عهده وشرطه

(٢) يريد : ورقة بيضاء

(٣) خلص على التجربة ، أى : تبين إخلاصه بعد التجربة والمحنة

ثم فرق ذلكَ المالَ فى قوم ضَعُفَتْ أحوالُهم بما لحقه ، وانصرفتُ من عنده وقد آيَسَنى من رجوع حاله ، وأعطانى نصفَ رُقْعة لا أقف على ما تُوصِل إليه . وتَقَضَّى أمرُهم [1] ، ومات الرشيدُ بطُوس ، وغلب الفضلُ بن سهلٍ على المأمونِ بخراسان ، وخلفَه على جميع أمره ، وشَجَر الأمرُ بين الأمين والمأمون [2] ، فظهرَ المأمون عليه [3] ، وصحَّت وِزارة الفضل ابن سهلٍ للمأمون ، ووردت بادِرةُ المأمون [4] بذلك إلى سائر النواحى . وطالت عُطْلتى ، واشْتَدَّت فاقتى ، وفقدت من كان يُؤْثِرنى وينحاش إلىَّ [5]

فإنى لجالس فى منزلى ـ فى يوم قد أعوزنى فيه قوتُ يومى ، وعلىّ ثوب خَلَقٌ ، وليس لى إلا خِلْعة أركبُ فيها ـ حتى دخل إلىّ غلامى فقال : « بالباب جماعة من أصحاب طاهر بن الحسين ! » ، فلبستُ ثيابَ رُكوبى ، وأذِنتُ لهم ، وتقدّمهم رئيس لهم تبيَّنت إعظامى فى نفسه ، فقال : « الأميرُ طاهرٌ يسألك المسيرَ إليه » . فنهضتُ ، فلما دخلتُ قدَّمنى وأعظَمَنى وقال : « ورد كتابُ الوزير أيَّده الله علىّ فى حملك إلى حضرته على حالِ تكْرِمَةٍ ، ومعك

(١) تقضى أمرهم : انتهى وانقضى
(٢) شجر الأمر بين الصديقين : إذا اختلفا وتنازعا وتشاجرا
(٣) ظهر عليه : غلبه وفاز به
(٤) البادرة : أوائل من يأتى بالأخبار والبشرى
(٥) انحاش إليه ، يريد : اكترث له ، أو اجتمع إليه

نصفُ الرُّقعة التى دفعها إليك يحي بن خالد ، وأمرنى بدفع ألفىْ دينار إليك لحَمُولتك ومُخلِّفيك[1] »

فقويَتْ نفسى ، وانفسح رَجائى ، وخرجتُ بعد قبْض المال مع رسول طاهرٍ . فلما دخلتُ إلى الفضل بن سهل ، لقينى بأجمل لقاء ، وسألنى عن نصف الرُّقعة فأحضرتُها ، ثم أسرَّ إلى بعض خَاصَّته شيئاً ، فمضى ، وجاء برقعة فوصلها بها فكَمَلت ، فلمّا استتمّ قراءَتَها بكى ، ثم قال : « رحم الله أبا العباس ! فما كان أعرفَه بتصرُّفِ الأيام ، واستدعاءِ الشكر فيها ، والتحيُّزِ من الذمِّ بها ! [2] »

ثم أدخلنى إلى المأمون ، ووَاكَدَ أمرى عنده[3] ، حتى بلغتُ معه إلى أخصِّ أحوالِ كتّابه ، ومَنْ وثق به فى مُهِمِّ أمره »

* * *

على المتطبب وولد أفلاطون

٢٢ — وحدّثنى علىٌّ المتطبِّب المعروف بالديدان — وكان حسن المعرفة بكُتُب أفلاطون ورُموزه ، ومبَرِّزاً فى الطبّ — ، قال :

« خرجت مع رجل — يُعرف بابن برُّوخ — من قوّاد السلطان إلى

---

(١) الحمولة مايحمل عليه القاعد من الدواب ، والمخلفون ، يريد : أهله الذين يخلفهم وراءه

(٢) تحيز من الذم . تنحى عنه وتأخر

(٣) واكده ووكده : أوثقه.

طَرَسُوس ، فغنم سَبْيا كثيراً [1] ، وكان السَّبْى فى دارٍ خرابٍ فى الموضع الذى نزلَ فيه ، فدخلتُ لتأمُّله ؛ فوجدتُ فى السبْى شابًّا حسَنَ الصورة جميلَ السَّمْتِ [2] ، وأكثرُ السبْى حوله ، ومكانُه منهم مكانُ المْولى من المماليك : يتسرَّعون إلى جميع ماأوْمَى إليه ، ويكفُونْ أخْذَه بنفسه . فكلّمتُ فيه بعض السبْى وسألته عنه ، فقال لى : « هذا من ولد أفلاطون ! » ، فارتحْتُ إليه لانتفاعِى بجَدِّه ، ودخلتُ إلىابن برُّوخ فقلت : « هبْ لى من هذا السَّبْى غلاماً » ، فقال لى : « خُذْه »

فدعوت بغُلامٍ يشتمل على أمرى [3] ، ووصفتُ له الشابَّ الذى فى السبْى ، وقلت له : « إذا سلَّمه إليك غلامُ ابنِ برُّوخ فأطعِمْه ممّا أعددْتَ من طعامى ، وألْبِسْهُ من فاخِرِ ثيابى ، وطَيِّبْه ومكِّنْه من مجلسى إلى أن أنصرفَ إليكم » . وتشاغلتُ بأمور ابن بروخ إلى آخر النهار ، وآنصرفتُ ، فوجدتُه على الهيئة التى آثرتُها ، ورامَ منِّى مايفعله غِلْمانى من الوقوف ، فمنعتُه من ذلك ، فقال لى بالرومية : « ياسيدى ! ما الذى وعَدَتْك به نفسُك مِنِّى ؟ فإن كان عندى بذلتُه لكَ وكنتَ حقيقاً به ، وإن لم يكن لدىَّ صَدَقْتُك عنه ، ولم أتغَنَّمْ منك ما لا يشبهنى تغنُّمُه [4] » ، فقلت له :

---

(١) السبى : الأسرى من العدو

(٢) السمت : الهيأة والمنظر والحركة

(٣) يشتمل على أمره : يخدمه فى جميع أمره ويحوطه

(٤) تغنم الشىء : طلب أن يجعله غنيمة بغير جهد

« قد اقتَبَسْنا من جدِّك أنواراً حَسُن بها أثَره علينا ، ووجب علينا بها وِقايَتُك بأنفسنا » ، فقال : « والله إنَّ الطِّباعَ التى لأسلافِنا معنا ، ولكنَّا شغلناها فى رَعْيِ الخنازير ، فبَعُدْتُ بها ممّن قرَّبَتْنى له ، وأكرمتنى بسببه »

فخيَّرته بين الدخول معى إلى مصر ، على أن أشاطره مِلْكى وعيشى ، أو أحتالَ له فى ردِّه إلى بلده ؟ فاختار رَدَّه إلى بلده . فلَطفْتُ له[1] - بإنفاذ بعض من أثق به مع الرُّسُل المتوجِّهين معه - حتى وصل إلى بلده »

٭٭٭

محمد بن سليمان والمؤلف

٢٣ — وكانت تنتابُ عجائزَنا[2] عجوزٌ جيلةُ المذهب ، ضعيفةُ الحال - تُعرَف بأمّ محمّد - ، فيجتمعنَ على كلّ صالحة ، وكنت أخصها بكفايتها . فلمّا دخل محمّد بن سليمان مصرَ ، نَزَلَ فى ظاهرها ، واستدْعَى الواحد بعد الواحد من أسباب الطُّولونية[3] ، فاستصفَى مالَه بالسَّوْطِ وعظيمِ الإخافة[4] ، فراعَنى أمرُه ، وخفْتُ أن يلحقنى عَسْفُه

(١) لطف له وبه . ترفق

(٢) انتاب القوم : إذا قصدهم ، وأتاهم مرة بعد مرة

(٣) الأسباب : المودّات ، ويريد أصدقاء بنى طولون الذين يمدون إليهم بسبب

(٤) استصفى مال الرجل : استخلصه وأخذ صفوه ، واستخرج أكثره

فإنى لجالسٌ فى يوم من الأيام وأنا خائف، حتى دخلتْ جاريةُ أمّ محمد العجوزِ، فسلَّمت علىّ، فظننتُها واللهِ تقتَضِى بعضَ ماعوَّدْتُها، فقالت: «سيدَتِى أمُّ محمد تقرأ عليكَ السلام وتقول: «جاءنى الساعةَ رسولُ ابن عمى وسيِّدى أبى علىٍّ محمدِ بن سليمان يسألُ عنِّى فعرَّفتُه أنى كنتُ فى كِفَايتك»، والرسول على الباب يُرِيغُ الوصولَ إليك»، فقلت: «يَدْخُلُ»

فدخل شابٌّ حسن الصورةِ يُعرَف بناشِى، فقال: «جزاك الله خيراً! فقد وصفتْك ابنةُ عم سيِّدى بما أرجو أن يحسُنَ أثرُه عليك». ودعا بأصحابِ الأرباع، فتقدّم إليهم بأن يَمْنَعُوا مَنْ تعرَّضَنِى، فعرَضْتُ عليه بِرًّا فقال: «وأىُّ برٍّ أكثر مما أتيته إلينا؟!»، وانصرفَ عنَّا

فرجع إلىّ ناشى هذا برُقْعة بخط ابن سليمان: «سر إلينا لننظُرَ فى أمرك، ونبلُغَ فيه محبَّتَك، فإنى أرعَى لك متقدِّمَ حُرْمَتِك، ووَكِيدَ أسبابِك، إن شاء الله». وما لحقنى منه شىء أكرهه حتى انصرف عن البلد

* * *

ابن أبى شراعة والمؤلف

٢٤ — وكان أبو الفياض سَوَّار بن أبى شُرَاعَة الشاعر صديقاً لى، ومائلا إلىّ، فلما اعتزم على الرجوعَ إلى العراق، سألنى أن أكتبَ له شيئاً من شِعْرى، فكتبتُ له مقدار خمسين ورقةً منه، وكان يستحسنه ويُعْجَب به. فصار إلى بغداذ وعَرَضه على جماعة

الأحرار [1]، وأحسن وصفى لهم بسلامة مذهبه، وطهارة نِيّته

ودخل محمد بن سليمان مصر، وقد رُدّ البريدُ بها إلى أبى عُبَيْد الله أحمد بن صالح، فسأله عند دخوله إيّاها عن أحمد ابن يوسف، فأحضر أحمدَ بن يوسف ـ كاتباً كان لأحمد بن وصيف، ولابن الجصّاص بعده ـ، فقال له: «تعرف أبا الفيّاض؟»، قال: «لا!». فقال لهم: «ليس هذا الرجل الذى طلبتُ»، فأُحضِرتُ، فلمّا رآنى استشرَف إلىّ [2]، وقال: «تعرف أبا الفيّاض؟»، فقلت: «ذَكَّرَك الله وإيّاه بكلّ صالحةٍ! نعم أعرفه، وكان خِلاًّ لى!»، فقال: «هل أنشدَك من شعره؟:

ظَلِلنا بها نَستَنزِلُ الدَّنَّ صَفْوَه
فَيَنزِلُ أقْباسًا بِغَيْرِ لَهِيبِ»

قلت: «لا ياسيدى! ولكنّى أنشدتُه إيّاه من شِعْرى!»، فضحك وقال: «والله لقد اشتَقْت إلى الدخولِ إلى مصر من أجلك!». وكان والله أفضلَ عَوْن لى على أمورى

* * *

علان بن المغيرة وفقيه

٢٥ — وحدثنى أحمد بن سقلاب، قال:

«كان بمصر رجلٌ من الفقهاء مشهورُ الإسْم، وله حَلْقَةٌ

---

(١) الأحرار: الأشراف والأفاضل، جمع حر

(٢) استشرف إليه: تطاول وتطلع إليه، ثم خرج إلى لقائه

عظيمة بالجامع . فبينا هو فى صدرها إذ وَافَى عِلاَّن بن المغيرة [1] ، فلما رآه مقبلًا نحوه قام إليه على رجليه ، ثم خطا إليه حتى لَقِيَه. فأكثرت الجماعةُ قيامَ شيخٍ مثلِه إلى حَدَثٍ [2] مثل عِلاَّن ، وتحفِّيه به ، وعَرْضِ نفســه عليه ، وأنّه لم يدع شيئاً يفعله تابع بمتبوع إلاّ بَذَله ، وأسْرَرْنا الموجدةَ عليه [3] . فلمـا قام عِلاَّن قال لجماعتنا : « ما أعلمنى بمـا أضمرتم ! ولـكنّى أريكم عُذرى فيما خرجتُ إليه :

« كانت عندى ألفُ دينار وديعةً لرجلٍ بالمغرب قد طال مُقامها ، وطالب زوجُ آبنتى بإدخالِ امرأته عليه ، فجلستْ أمُّها بحَضْرتى فقالت لى : « ما الذى تراه فيما قد ألحّ فيه هذا الرجل ؟ » ، فقلت لها : « نستعمِل فيه التجوُّز » [4] ، فقالت لى : « لنا حُسّاد نخاف شَماتتهم ، ولا بُدّ من أن تُعِينَنى على التجمُّل » ، فقلت : « إنْ كان ما تُريدين فى قدرتى لم أبخلْ به عليكم » قالت : « هو فى قُدْرتك ! » قلت : « ماهو ؟ » ، قالت : « تمكِّنّى من هذه الوديعة » ونحتاط فيما نبتاعه من الجَهاز حتى يصل إلينا ثَمَنُه فى أىِّ وقتٍ أردناه ، ونُدْخِل هذه الصبيّةَ على زَوْجها . فإن جاء صاحبُ الوديعـة بِعْنا

---

(١) فى الأصل : « ابن علان بن المغيرة » . ثم ذكره فقال . « علان »

(٢) الحدث : الحديث السن الصغير

(٣) الموجدة : الغضب المكتوم

(٤) التجوز : التساهل

ما آشتريناه ولم نُوضَعْ فيه [(١)] إلاّ مايسهُل علينا غُرْمه » ، قلت : « هذا قبيح عنـد الله وعند خلقه ! » . فلم تزل تُلِحُّ بى وتحتالُ علىّ ، حتى أجبتها . فجهّزتِ آبنتَها بجميع المـالِ ، وأدخلتْها على زوجها

فلم يمضِ بنا بعد ذلك إلاّ شهران حتى وافى صاحبُ الوديعة يطلبُها ، فقلت لها « ما تفعلين ؟ » ، فقالت : « أمْضى فأحمِل المَتاع وأبيعُه » . فمضتْ إلى ابنتها ورجعت إلىّ ، فقالت : « لا تشغَلْ نفسَك بهذا المتاع ، فقـد حلَف زوجُها بطلاقِها أنه لا يَخْرُج منه شىءٌ عن منزله » ، فسُقِط فى يَدِى [(٢)] ، ورأيتُ الفضيحةَ فى الدّارَيْن متصـدِّيةً لى : فوُضِع إفطارى بين يدىّ فلم أطْعَم ، وآعترانى ماخفتُ منه على عَقْلى ، وبتُّ بليلة ما بِتُّ بمثلها . وأنا أتبيّن سهولةَ ذلك على زوجتى فى جَنْب ما أحرَزَتْه لبنتها . ثم آنتبهتُ قبلَ الفجر بمنازِل ، فصحتُ بالغلام « أسرِج لى ! » ، فقـام [(٣)] وأسْرج ، وقال : « ياسيدى ! أين تمضى ؟ » ، فقلت : « ليس لك الاعتراضُ علىّ »

وركبتُ وسِرْت طَوْع عِنانى ، فلم يزل يَغْلى يسير حتى دخلتُ

---

(١) أوضع فى المـال (بالبناء للمجهول) : وكس وغبن وخسر

(٢) سقط فى يده (بالبناء للمجهول) : إذا زل الرجل وأخطأ فندم على مافرط منه

(٣) أسرج له : أى وضع على الدابة سرجها

«زُقاقَ علّان بن المغيرة ، فوقفتُ على باب دارِه ، وصَاحَ الغلام بالبوّاب وعَرّفه بموضعى . فسمعتُ حركة فى داره ، ثم فُتِح الباب وأُذِن لى بالدخول . فدخلتُ عليه ، فوجدتُ بين يديه شمعةً وهو يكتب جواباتِ كتُبٍ وُكلائه . فلمّا رآنى قام إلىّ ، وقال لمن حضره من الغلمان ، « تَنَحَّوْا ! » ، وأقبل علىّ فقال : « والله لو بعثت إلىّ لسرْتُ إليك ولم أُجَشِّمْك السعْىَ إلىّ ، فاشرحْ لى أمرك » ، فغَلبتْنى العَبْرَةُ وحالت بينى وبين الكلام ، فما زال يُسَكّنُنى حتى نَصَصْتُ له إنفاقَ الوديعة [1] ، وهو مغمومٌ بأمرى . ثم قال : « فكم هذه الوديعة ؟ » ، فقلت «ألفُ دينار ! » ، فضحك ، وقال : «فرّجت وَالله عَنّى ! ما توسَّمْتُ أنى أملكها [2] ، فكان الغمّ يقع بها ، فأمّا وهى فى القدرة فما أسهلَها علىّ ، وأخفَّها لدى ! » ، ثم قال لغلامه : « جئنى بتلك الصِّرار [3] التى وردتْ علينا من المغرب فى هــذا الشَّهر » ، فجاء بأربع صِرارٍ فنظرَ فيما عليها وجمَعه وقال : «هذه ألف دينار وخمس مائة دينار ، ألفٌ للوديعة ، وخمس مائة تصلح بها ما بينك وبين من عندك » ، ثم قال لى : « متى أشكر إفرادَك إيّاى ـ بعدَ الله عز وجل ذكره ـ بتأميلى فى حادِثةٍ حدثت عليك ، فأعانى الله على مكافأتك ؟ » . وأضاف إلىّ من خَفَرنى إلى منزلى »

---

(١) نص الحديث إلى فلان : رفعه إليه وأظهره

(٢) توسم الشيء : توهمه وتخيله

(٣) الصرار : جمع صرة ، وهى التى تصر فيها الدراهم

فقالت الجماعةُ : « قد سمعنا عُذْرك ، وعلينا عهدُ الله إنْ لقيناه أبداً إلّا قياماً »

❊❊❊

الطالبي ووالد المؤلف

٢٦ — وبعثَ أحمد بن طولون ـ فى الساعة التى تُوُفِّيَ فيها يوسف بن إبراهيم والدى ـ بخَدَمٍ فهَجَمُوا الدَّار [1] ، وطَالبوا بكتبه : مقدِّرِين أن يجدوا فيها كتاباً ممّنْ ببغداذ . فحملوا صندوقين وقبضُوا عليَّ وعلى أخي ، وصاروا بنا إلى داره . وأُدْخِلنا إليه وهو فيها جالس ، وبين يديه رجل من أشرافِ الطالِبيِّين . فأمر بفتح أحدِ الصندوقين ، وأدخل خادمٌ [يَدَهُ] ، فوقع دفترُ جراياته على الأشرافِ وغيرهم . فأخذ الدفترَ بيده وتصفَّحَه ـ وكان جيِّد الاستخراج ـ فوَجدَ آسمَ الطالبيّ فى الجِراية ، فقال له وأنا أسمع : «كانت عليكَ جرايةٌ ليوسف بن إبراهيم ؟ » ، فقال [له : « نعم أيّها الأمير !] ، دخلتُ هذا البلد وأنا مُمْلِقٌ [2] ، فأجرى عليَّ فى كل سنة مائتى دينار ومائتى إرْدَبّ قمحٍ ، أُسوةً بابنى الأرقط والعَقِيقىّ وغيرهما . ثم آمتَدَّت يَدَاى بطَوْلِ الأمير [3] فاستعفيتُهُ منها ، فقال لى : « نَشَدْتُكَ اللهَ إن قطعتَ سبباً لى برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ! » ، وتَدَمَّع الطالبى [4] ، فقال أحمد بن

(١) هجم الدار : دخلها بغتة بغير إذن
(٢) أملق الرجل فهو ملق : نفذ ماله فهو فقير
(٣) امتدت يده بكذا : اتصلت . والطول : الفضل والإحسان
(٤) تدمع : أى سالت دمعته وبكى ، ولم يوجد فى اللغة ، ولكنه كثير فى كتب عصر ابن طولون

طولون : «يرحمُ الله يوسف بن إبراهيم !». ثم قال لنا : «انصرفوا إلى منازلكم، لا بأس عليكم»

فانصرفنا فلحقنا جنازة والدنا، وحضَرنا العلوىُّ وقد أحسن مكافأة والدنا فى مُخلَّفيه

* * *

موسى بن مصلح ورجال من التجار

٢٧ — وحدثنى موسى بن مُصلح، قال :

أنفذ إلىَّ حسن بن مهاجر ـ كاتبُ أحمد بن طولون ـ عشرةَ رجال من التُّجار، وقال : «اعتَقِلْهم بمَعْزِلٍ عن المسجونين، حتى أعرِضَهم فى غَدٍ على الأمير». فتسلمت منه قومًا تشهدَ لهم القلوبُ بالفضل، فآنستُ وَحْشَتهم، وفَسَحْتُ رجاءَهم. فقالوا لى : «قد شكرنا جميلَ صَنِيعك، ولنا إليك حاجة»، قلت : «ماهى ؟»، قالوا : «فينا فتًى يضعُفُ قلبهُ عن لقاءِ الأمير، فتقبَّلْ مِنَّا بدَلًا به، ولك علينا مائة دينار»، قلت : «أنا أفعل، إن وجدتُم من يُجيب إلى هذا !». ـ وكان عندى أنه كالممتنع ـ ؛ فأخذ شيخٌ منهم رُقعةً وكتب فيها إلى رجلٍ كان قد أوْلَاه عارفةً، فسأله ذلك، فأجابه الرجل : «إنى بإثْرِ رُقعتى»

قال موسى : «فتوهَّمْتُ أن هذا قولٌ لاثمرةَ له، فلم أشعر به حتى وَافَى فقال : «ما أخَّرنى عنكَ إلّا أنّى جدَّدت وصيةً، وأحكمتُ ماخِفْت أن يقطعَنى عنه مادَعَوْتَنى إليه»، وقال : «لستُ أُجيبك إلى ما التمَسْتَ، حتى تكون المائةُ الدينار من عندى دون جَماعتكم»،

وأخرجها من كُمّه ودَفعها إلىّ ، وصرفتُ الرجل . وأقامَ هـذا مكانَه ، فلم أتبيّن منه غمًّا بهذا ولا قَلَقاً له . وظَلُّوا ليلتهم يتحدّثون ويتناشـدون ، والسلامةُ غالبةٌ على خواطرهم ، حتى أصبحوا . وأخرجهم حسن بن مُهَاجر فعرضَهم على أحمد بن طولون ، فتبيّن تحامُـله عليهم ، فأمَره بـترك التعرُّض لهم . فآنصرفوا . وكانت أَلْطافهم تَرِد عَلىّ حتى فَقَدتهم »[1]

* * *

تاجر وزوجته

٢٨ — وحدثنى أحمد بن أيمن كاتبُ أحمد بن طولون ، قال : « دَخلتُ بالبصرة إلى تاجر ذَهَب عنّى اسمُه ، فرأيتُ بين يديه ابنين له فى نهاية من النظافةِ ، فلما رآنى أُقْبِل بنظرى إليهما ، قال لى : « أُحِبّ أن تُعوّذَهما[2] » ، فَفعلتُ ، وقلت له : « استجدْتَ الأُمَّ فحُسنَ نَسْلُك ! » ، فقال : « مابالبصرة أقبحُ من أُمِّهما ، ولا أحبُّ إلىّ منها . ولها معى خبر عجيب » ، فسألتُه أن يُحَدِّثَنِيه ، فقال :

« كنت أنزل الأُبُلَّةَ وأنا مُتَعَيِّش[3] ، فحملتُ منها تجارةً إلى البَصْرة فربحتُ ، وحَمَلْتُ من البصرة إلى الأُبُـلَّةِ فربحتُ ولم أزلْ أحمل من هذه إلى هذه فأربَح ولا أخسَر ، حتى كـثُرَ مالى ، وتَعالم الناس إقبالى ، وآثَرْتُ السُّكْنَى بالبصرة ، وعلمتُ أنه لايحسن بى

---

(١) الألطاف : جمع لطف ، وهى الهدية والتحفة

(٢) عوّذه من العين والحسد ، قال : « أعيذك بالله وأسمائه من كل ذى شر وكل داء وحاسد وعين »

(٣) المتعيش : الذى يتكلف أسباب المعيشة بالقليل من العمل والتجارة

المُقام بها بغير زوجةٍ ، ولم يكن بها أجلَّ قدراً من جَدِّ هذين الغلامين .
وكانت له بنت قد عَضَلَها ، [1] وتعرّض لعداوَة خُطّابها . فحدَّثتنى نفسى بلقائه فيها ، فجئته على خَلْوَةٍ ، وقلت له : « ياعَمِّ ! أنا فلان بن فلان التاجر » ، فقال : « ماخَفِىَ عنّى محلُّك ومحلُّ أبيك ! » ، فقلت : « قد جئتك خاطباً لابنتِك » ، فقال : « والله مابى عنك رَغْبَةٌ ، ولقد خطبها إلىّ جماعةٌ من وجوه البصرة وما أجبْتُهم ، وإنى لكارهٌ من إخْراجِها عن حِضْنى إلى من يُقَوِّمها تقويم العَبِيد » [2] ، فقلت : « قد رفعها الله عن هذا الموضع ، وأنا أسألك أن تُدْخلنى فى عَدَدِك ، وتَخْلِطَنى بشَمْلك » ، فقال : « ولا بُدّ من هذا ! » ، قلت : « لا بُدّ ، وهو زائدٌ فى فضلك علىّ ، واصطناعك إيّاىَ » ، فقال : « اغْدُ علىّ بِرِجالك »

فانصرفتُ عنه إلى مَلأٍ من التجار ذوِى أخْطارٍ ، [3] فسألتهم الحضورَ معى فى غدٍ ، فقالوا : « إنّك لتُحَرّكنا إلى سَعْيٍ ضائع » ، قلت : « لا بدّ من ركوبكم معى » . فركبوا على ثِقَةٍ من أنّه يردُّهم ، وغدوْنا عليه فأحسنَ الإجابةَ وزوّجنى ، وأطعمَ القوم ونَحَر لهم ، وانصرفوا

ثم قال لى : « إن شئتَ أن تبيتَ بأهلِك فافعل ، فليس لها

---

(١) عضل المرأة : حبسها ومنعها الزوج

(٢) قوم السلعة والعبد : قدر قيمتها فى الشراء والبيع

(٣) الملأ : الرؤساء وأشراف القوم ووجوههم . والأخطار : جمع خطر ، وهو القدر والمنزلة الرفيعة

ما يَحْتاج إلى التلوُّمِ عليه [1] » ، فقلت : « هذا يا سَيِّدى ما أحبُّه » .
فلم يزل يحدِّثنى بكل حَسَنٍ حتى كانت المغربُ ، فصلاَّها بى ، ثم سَبَّح وسبَّحت ، ودعا ودعوتُ ، إلى أن كانت العَتَمة نصلاَّها [2] بى ، وأخذ بيدى . فأدخلنى إلى دارٍ قد فُرِشَت بأحسن فَرْشَةٍ ، بها خَدَمٌ وجَوَارٍ فى نهاية من النَّظافة ، فما استقرَّ بى الجلوس حتى نَهَضَ ، وقال: « أستودعك الله ، وقدَّم الله لكما الخِيَرَة ، وأحرَز التوْفيق » .
واكتَنفَتْنى عجائزُ من شَمْله ، فجَلَوْنَ ابنتَه علىَّ [3] . فما تأمَّلت طائلا وأرْخَتِ الستورَ علينا ، فقالت : « يا سيدى ! إنى سرٌّ من أسرارِ والدى ، كتَمه عن سائر الناس وأفضى به إليك ، ورآك أهلا لسَتْره عليه ، فلا تُخفِرظَنَّه فيه . ولو كان الذى يُطْلَب من الزوجةِ حُسْنُ صورتها دون حسن تدبيرها وعفَافِها ، لعَظُمَت مِحْنتى . وأرجو أن يكونَ معىَ منهما أكثرُ مما قصر بى فى حُسْن الصورة ، ثم وثبت فجاءت بمال فى كِيسٍ ، فقالت : « يا سيدى ! قد أحلَّ الله لك معى ثلاثَ حرائرَ وما آثرتَهُ من الإماء [4] . وقد سَوَّغتُك تزوُّج الثلاث وابتياع الجوارى من مالِ هذا الكيس ، فقدأوقفتُه

---

(١) تلوم على الشيء : انتظر وتلبث

(٢) العتمة : ثلث الليل الأول بعد غيبوبة الشفق . وهو وقت صلاة العشاء . وقد نهى صلى الله عليه وسلم عن تسمية صلاة العشاء « العتمة »

(٣) جلا العروس على بعلها يجلوها : زينها وصقلها وأدخلها عليه ، وذلك « جلوة العروس »

(٤) الحرائر : جمع حرة ، وهى المرأة التى لم يجرعليها الرق . فتكون أمة ، وهى المملوكة ، وجمعها إماء

على شَهَواتك ، ولستُ أطلب منك إلاّ سَتْرى فقط »

فقال لى أحمد : لحلفَ لى التاجرُ : « إنها ملكت قلبي مِلْكا لم تصل إليه حَسَنَةٌ بحُسْنها ، فقلت لها : جزاءُ ماقدّمتِيه ماتسمعيهِ[1] منّى : « والله لاأصبتُ من غيرك أبداً ، ولأجعلنَّك حَظّى من دنياى فيما يُؤْثِره الرجلُ من المرأة ! » ، وكانت أشفقَ النّساء ، وأضبطَهم ، وأحسنَهم تدبيراً فيما تتولاه بمنزلى ، فتبيّنت وقوعَ الخِيَرة فى ذلك . ولحقتنى السِّنُّ ، [2] فصارتْ حاجتى إلى الصواب أكثرُ منها إلى الجِماع . وشكرَ الله لى ماتلقّيت به جميلَ قولها ، وحُسْنَ فعلها ، فرزَقنى منها هذين الابنين الرّائعين لك ، ونحن منقطعون إلى جُودِه فينا ، وإحسانِه إلينا »

❊ ❊ ❊

هرثمة بن أعين والرشيد

٢٩ — حدثنى أحمد بن أبى يعقوب قال :

« أنكر المهدى على هَرْثَمة بن أعيَن تحكُّكه بمَعْن بن زائدة ، وأمر بنَفْيه إلى المغرب الأقصى ، فكلّمه الرشيدُ فيه ، واَسْتَلّ سَخيمتَه عليه[3] . ومات معنٌ ، وزادت حالُ هرثمة ، وشكر للرشيد ما كان منه ، وأفضت الخِلافة إلى موسى الهادى ، فتمكّن منه هرثمة .

---

(١) هذا حكاية قول التاجر ولذلك لم يبدّل ما فيه من اللحن والخطأ ، وسيمر كثير من ذلك فى الكتاب

(٢) لحقته السن : أدركه الكبر فى السن العالية

(٣) السخيمة : الغضب والموجدة فى النفس . واستلها وسلها : أخرجها بتأنّ ورفق

وحدّثت الهادِىَ نفسُه بخلْع الرشيد ، وجَمْع الناسَ على تقليدِ آبنه العَهْدَ بعهده ، وعلِم بهذا هرثمة ، وتذكّر عارفة الرشيدِ، فتمارَضَ

وجمع الهادِى الناسَ ودعاهم إلى خلع الرشيد ونَصْب آبنه مكانه ، فأجابوه وحالَفوا له . وأحضَر هرثمة ، فقال له : « تُبايع ياهرثمة ؟ » . فقال : « ياأمير المؤمنين ! يمينى مشغولةٌ ببيْعَتك، ويسارى مشغولة ببَيْعةِ أخيك ! فبأىِّ يدٍ أُبايع ؟ والله ياأمير المؤمنين لَاأكَّدْتَ فى الرقاب من بيْعَة آبنك ، أكثرَ مما أكَّده أبوك لأخيك فى بيعته ، ومن حَنِثَ فى الأولى حَنِثَ فى الأُخرى [1] . ولولا تأوُّل هذه الجماعة بأنَّها مُكْرَهة ، وإسْرارُها فيك خِلافَ ماأظهرَتْ ، لأمسَكْتُ عن هذا » . فقال لجماعة مَنْ حَضر : « شَاهَتْ وجوهكم ! والله لقد صَدَقَنِى مولاى وكَذَبْتُمونى ، ونَصَحَنى وغَشَشْتمونى »

وسَلِمَ إلى الرشيدِ ماقدره الهادى فيه .

* * *

أبو يوسف والرشيد

٣٠ — وسمعت يوسف بن إبراهيم والدى يقول :

« لم يتمكّن أحدٌ من أحدٍ تمكُّنَ أبى يوسف القاضى من الرشيد . ولقد سألتُ إبراهيم بن المهدى عن السبب فى ذلك ، فقال : « كان يستحِقُّ هذا منه لما حدّثنى به مسرورٌ الكبير ، قال :

« كنتُ فى خِدْمة المهدىِّ ، وكان الرشيد حفيًّا بى [2] ، محسنًا إلىّ ، فلمّا آنتقل أمر الخلافة إلى الهادى ، قال لى الرشيد : « إنّ

(١) حنث فى اليمين : نقضها بعد توكيدها

(٢) يقال : حَفِىَ به ، أى : مبالغ فى الكرامة والبر

أخى قوىُّ الشَّراسة ، وأنا أخاف إيقاعه بى وجَمْعَ الناس على بيعة ٱبنه بعده . وأنا على غايةٍ من الثقة بك ، فٱعدل إليه وكن لى عَيْنا عليه[1] » . فتقدمتُ عند الهادى حتى توليت سِتْرَ بيت خَلْوَته .

وكان المهدىُّ قد قَرَن أبا يوسف بالهادى فتمكن منه ، وقَبِل فى مُهِمَّاته مَشُورته ، فلمَّا حَلَا بقلبه شاوَره فى ذلك ، فقال : « ياأمير المؤمنين ! لاتحمِلْ نفسَك على قطيعة رَحِمك ، وأولياءَك على الحِنْثِ بأيْمانهم ، وٱستدْعِ من الله زيادَته بما يُرضيه عنك » ، فتوقَّف بعض التوقُّف . وسُعى إليه بالرشيد ، وقيل له : « إنه [عاملٌ] على أن يغتالَك » . فدعا بأبى يوسف وأخبره بما تأدَّى إليه ؛ فقال : « ياأمير المؤمنين ! لاتسمَعْ هذا ، وأنا الضامنُ لك حُسنَ طاعته ووَكيد مُوَالاته » . فكنت أُنهِى جميعَ ذلك إلى الرشيد فيشتدُّ سرورُه به ، ويرغبُ إلى الله فى مَعُونته على مكافأته

فلما أفضت الخلافةُ إليه ، دعا به وقال له : « يايعقوب ! لو جاز لى إدخالك فى نَسَبِى ، ومشاركتُك فى الخِلافة المُفْضِيَة إلىّ ، لكنتَ حقيقًا به ! ألستَ القائلَ لأخى وقت كذا : كذا ؟ وفى وقت كذا : كذا ؟ ، فقال : « ياأميرَ المؤمنين ! من أنبأك بهذا ؟ فوالله ماكان معنا ثالث ! » . فضحك الرشيد وقال : « مسرورٌ كان يتولى سِتْر بيت خَلْوَتهِ ، وكان يُنْهِى إلىَّ جميع ماصَدَر عنه »

قال مسرور : « فوالله مابرحتْ بى عنايةُ أبى يوسف حتى

---

(١) العين : الجاسوس

بَلَغْتُ مع الرشيدِ هذا المبلغ ! »

* * *

أبو يوسف وبذل

٣١ — وحدّثنى أحمد بن أبى عمران الفَقِيه ، أن ابن الثلجى حدَّثه ، أنَّ بشرًا المريسىَّ ـ وكان متزهِّدًا ـ قال :

«ما آشتهيتُ من مَراتب السُّلطان إلّا مرتبةً رأيتُ أبا يوسف بلغها فى عشيةٍ من العَشَايا . كنت آجتزتُ به مسلِّمًا عليه ؛ فقال لى : « تُقيم عندى العشِية لنتناظر فى طائفة من العلم ؟ » . فإنّى لجالسٌ عنده ــ وقد آبتدأ فيما أَثَرْناه ـ حتى وَافى إليه رسولُ أمير المؤمنين الرشــيد ، فقال لى : « انتظرنى » ، ومضى . فغاب عنّى مقدارَ ساعتين ، ورجع ، وخلفَه غلمان يحملون مالًا ، فوضعوه بين يديه وآنصرفوا فقال : «دُفِعتُ الليلة إلى عجائب ! » ، قلت : «ماهى ؟ » ، قال : «دخلت إلى دارِ أمير المؤمنين ، فآنتهى بى رسولُه إلى سِتْرٍ مُسْبَلٍ على بابٍ[1] ، مسرورٌ الكبير يُمسكه ، فقال لى : « سلِّم على أمير المؤمنين ! » ، فسلمتُ ، فقال : «وعليك [السلام] يا يعقوب ! آدخُلْ وحدَك» ، فَرُفِعَ الستر حتى دخلتُ ، فأُلفيت عنده محمّد ابن جعفر بن المنصور ـ مولى الجارية المعروفةِ بِبَذْلٍ ـ ووَجْهُ كل واحد منهما محوَّلٌ عن صاحبه ، وبين يَدَى الرشيد سيفٌ مشهور

فقال لى : « يا يعقوب ! هذا الرجل يُديرنى مُذِ الظهر على قتله ! » ،

(١) مسبل : مرسل

فقال له : « ترضى به حكما بيننا ؟ » ، قال : « نعم ! » ، قال : « ألقِ هذا السيف من يَدِك ، وآرْضَ بالحقّ لكَ وعليك » . وآستدارا جميعاً حتى جلسا مجلسَ الخُصوم بين يدىّ

ثم قال الرجل : « سألنى أميرُ المؤمنين أن أبيعَه جاريةً علىّ فيها أيمان مُحَرِّجة لا كَفَّارة لها ، ألّا أبيعَها ولا أهَبَها » ، قال فقلت له : « فتَسْمح بها لأمير المؤمنين إن أخرجتُك من يَمينك ؟ » ، قال : « إى والله ! وإن ذلك لسهْلٌ علىّ » ، فقلت : « هَبْ لى نصفها ، وبِعْهُ نصفَها » . فقال : « قد أَجبْتُ ، وجعلتُ ثمَن النصف هديّةً لك » . وتعانقا جميعاً ، وآنصرفتُ إليك ، ولحِقَنى هذا المال » . فوجدنا المال المحمولَ خمسة وعشرين ألفا ، فقلت فى نفسى : « أحْيِ نفساً ، وأصلحَ بين خليفةٍ وآبن عَمّه فى مقدارِ ساعتين من النهار ! »

قال بشر : « فوالله ما فرَغنا من صلاةِ المغرب حتى آبتدَرنا الغلمان يحملون مالا وبَزًّا وطِيباً [1] ، ومعهم جارية حصيفةٌ [2] ، فقالت : « تقرأ عليك السلامَ سيّدتى وتقول لك : « أجازَنى سيّدى أمير المؤمنين بما حملته إليكَ ، فجعلتُه ثواب الفُتْيا التى كانت سَبَبَ وصولى إليه »

فكان المال منه خمسة وعشرين ألفا »

* * *

(١) البز : الثياب

(٢) حصيفة : جيدة الرأى محكمة العقل

رجل من صنائع الأمويين والمنصور

٣٢ — حدثنى أحمد بن أبى يعقوب قال : حدثنى أبى أبو يعقوب، عن جدّى واضح مولى المنصور، قال :

« كنتُ بين يدى المنصور ، وقد أحضَر رجلا كان من رجال هشام بن عبد الملك، وهو يُسائله عن سيرة هِشامٍ لأنها كانت تُعجب المنصورَ. فكان الرجل يترحّم عند كل جارٍ من ذكره، فأحفظ ذلك جماعتَنا [١] ، فقال له الربيع : « كم تترحّم على عدوّ أمير المؤمنين ؟ » ، فقال الرجل للربيع : « مجلسُ أمير المؤمنين — أيّده الله — أحقّ المجالس بشُكْر المحسِن ، ومجازاةِ المُجمِل، ولهشام فى عُنُق قِلادَةٌ لا يَنْزِعها إلّا غاسلى » ، فقال له المنصور : « وماهذه القِلادة ؟ » . قال : « قلّدنى فى حياته [٢] ، وأغنانى عن غيره بعدَ وفاته ! » ، فقال له المنصور : « أحسنتَ بارك الله عليك ! وبحُسن المكافأةِ تُستَحثّ الصنائعُ ، وتزكو العَوارف [٣] » ، ثم أدخله فى خاصته »

* * *

بعض أقوال الفلاسفة فى حسن المكافأة

وقد مثّل بعضُ الفلاسفة لِحُسْنِ المكافأةِ ، بالحُسام الصقيلِ الذى يُحْدِث له وقوعُ الشمس عليه : انبعاثَ شُعَاع منه يجلُو غَياهب

(١) أحفظه : أغضبه

(٢) قلدنى : يريد قلده عملا من أعمال السلطان

(٣) استحث الصنائع : جعلها سريعة متتابعة متصلة ، والصنيعة : الجميل والإحسان ، والعوارف : جمع ، عارفة ، وهى المعروف . زكا المعروف يزكو : نما وازداد

الأمكِنة المظلمة ، ويكون وُفور شُعاعه على حسب صِقَاله

وقال أفلاطون : « من حَسُنت مكافأته ، لم تُغْضِبه خَيْبتُه فيما لتمَسَهُ ؛ لأنه يُقيم العوارِفَ مقام دُيونٍ يتحمَّلها لا يَسَعُه إغفالُ قضائها . وإنما يغضَب من المنع : مَنْ آثَرَ تحصيلَ العارِفة وإغفالَ المكافأةِ عليها »

✡ ✡ ✡

خاتمة المؤلف لهذا الباب

ولأنَّ المرغوبَ إليه إذا كان يحتاج إلى مُطالعة حُسْنِ المكافأة للإحسان فيثابِر عليه ، وسوءِ المكافأةِ على الإساءة فيتأخَّر عنه ، كان الراغبُ محتاجًا إلى أن يكونَ فى خَلَده من أخبار من أساءَ الصنيع فساءَت مكافأته ، مايوازى ماأثبتناه من حُسْن المكافأة للإحسان

٣ ـ المكافأة على القبيح

ملك الهياطلة وفيروز

٣٣ ـ حدثنى أحمدُ بن يوسف بن جعفر بن سليمان بن على بن عبد الله بن العباس، عن أبيه، عن جدّه مولى عبد الله بن المقفع ـ أنّ عبد الله حدّثه، قال

«كان فيما ترجمتُه من سِيَرِ الفُرس: أن فيروزاً لمّا تقلّد مملكة فارس حدّثته نفسه باجتياز بلد الهَيَاطلة. وكان به للهياطلة مَلِك صحيحُ الرأى حَسَنُ الجوار، فجمع ذَوِى الرأى فى بلده وسألهم عمّا يرون، فعرضوا عليه أموالهم والخروج معه، فجزّاهم خيرًا وانصرَفوا. وخلَا به وزيرُه ـ وكان عَالِيَ السِّنّ[1] ـ فقال له: «أيها الملك إنّ يسيرَ الحيلة ربّما بلغ أوْفَى منازِل المكافحة والّذى عندى من الرأى أن تُظهر السُّخط علىّ فتقطع يدىّ ورجلىّ، وتنفِيَنى إلى أقاصِى عَمَلك، وتكتبَ إلى عاملك هناك فى حبْسى، وتظهِرَ أنّك تَبيّنت منّى مَيْلاً إلى فيروز»، فقال له: «إنّ حسن الحيلة إنّما يَقع بغير إضرار يلحق صاحبها، وإذا بلغنا بك هذا، فقد جاوزنا بك ماتخافه من فيروز لو حصلتَ فى يده»

فقال: «أنا مُذْ تكامَلَ تمييزى أحسُب مالِىَ وعلىَّ، فإذا وُهِبَتْ لى نعمةٌ علمتُ أنَّ علىَّ فيها مِحْنة، وأنّ الرغائبَ بالنوائب[2]. وقد

---

(١) عالى السن: كبيرا مسنا

(٢) الرغيبة: الشىء العظيم المرغوب فيه

عشتُ فى سلطانك ـ أيها الملك ـ فى هـــذه السّن العالية ، عزيزَ الجانب ، خصيبَ الأفْنِية ، وشَمْلى فى نهاية من رَفَاغة العيش.[1] وليسَ من الجميل أن أمْسِك عن قضاء حقّ النعمة علىّ لسلطانى وشَمْلى وأهلى وولدى . وصِيَانتهم ، ممـا عَرَاهم بنفسى[2]. وأعلم أنّى لو خدمتُ السلامةَ لنفسى ، لمـات ذِكْرى بموتى ، ولم أُبق شَرَفًا لأهلى ! ولعلّ أجلى قريبٌ ، فأفوز بحُسْن الذكـر فيما أتيتُه وقضَيْتُ به حقَّ سَوالف الإنعام علىّ ، والإحسان إلىّ . وإنّما آعتمدتُ هذا الأمرَ الفظيعَ لأعدلَ بفـكْر فيروز عن الحِيلة ، وأضطرَّهُ إلى السكون إلىَّ »

« فلمّا رأى أنه لا يرجع عمّا أشار به عليه ، دعَا به وقطعَ يديه ورجليه ، ونفاه إلى آخر مسالحه[3] ، فكان محبوساً هناك

« وجدَّ فيروز فى سفره ، ووافى الموضع الذى فيه الوزير ، فوجده خالياً ممن كان فيه ، ولم يرَ به غيرَ رجلٍ مقطوعِ اليدين والرجلين ، فسأله عن حاله فقال : « كنت وزيراً لهذا الخانِ فاستشارنى ، فأشرْتُ عليه أن لا يناهِضك . وأن يسألك إقرارَه فى البلد ، وحملَ خَرَاجه

---

(١) رفاغة العيش سعته وخصبه

(٢) عراه الأمر الشديد أصابه وغشيه.

(٣) المسالح : جمع مسلحة ، وهو الموضع المخوف يكون فيه جماعة بسلاحهم يرقبون العدو لئلا يطرقهم على غفلة ، فإذا رأوه أعلموا أصحابهم ليتأهبوا له

إليك . فاستشاط ، وسوّلت له نفسُه مُنَاوأتك ، وقد جمع جيشاً له كثيرَ العَدَد قوىّ النِّكاية ، وقدّر أن يلقاك فى هذه الطريق . وعندى حيلةٌ أجازيه بها على سوءِ صنيعه »

« واستجْلَى فيروزُ الوزيرَ [1] فقال له : « إن عَدَلْتَ عن هذه الطريق وتجشّمت قطع بَرِيّةً يُقيم السائرُ فيها يومين ، تحتاج إلى حمل الماء إلى مسيرةِ يوم منها ، ثم تُفْضِى إلى مياهٍ متدفّقة . فإذا قطعتَها وصلتَ إلى بلد الهَيَاطلة ، وهو وجَمْعُه فى الطريقِ الذى آثرتَ سلوكَها ، فتدخل البلدَ بغير حربٍ »

« فحملته الاستنامةُ إليه ـ لما رآه بِهِ ـ على تصديقه [2] ، ولَحِجَ فى البريّة بجميع جيشه [3] ، ـ وقد كان وَاطأَ [الوزيرُ] الملكَ على تكمين جَمْعٍ له آخر فى البرِّية [4] ـ ، فسار يومَه وبعضَ غدِه فى قفرٍ لا يوجد به ماء ولا نَبْتٌ ، فتساقطت الدوابُّ من العَطَش ، وافترق الجيش لطَلَب الخلاصِ ، وخَرَج عليه مِنْسَرٌ من جيش الهياطلة فأَمِرُوا عليهم [5] ، وأخذوا فيروزاً أسيراً . فمَنَّ عليهِ ملكُ الهياطلة

---

(١) فى الأصل : « واستخلى فيروز الملك » . واستجلى صاحبه الأمر : طلب أن يجلوه له ويكشفه

(٢) استنام إليه : اطمأنّ وسكن ، حتى كأنه فى نوم وغفلة

(٣) لحج فى البرية : مال إليها ، ودخل فيها

(٤) واطأه على الأمر : وافقه عليه اتفاقا . كمن الجمع تكميناً : جعله كميناً مختفياً فى مكمن لا يفطن له العدو

(٥) المنسر : جماعة الخيل ما بين المائة إلى المائتين تنقض على العدو . أمروا عليهم : كثروا عليهم فغلبوهم

بالإمساكِ عن قتله [1] ، وجمع وجوه بلده وأضافَ إليهم وجوهاً من عسكر فيروز ، وآستحلفَ فيروزاً بحضرتهم أنه لايجاوزُ حَجَراً جعله فَصْلًا مشـتركا بينه وبينه . وأثبتَ المُفارَقة فى صحيفةٍ بخطّ فيروز [2] ، وأشهد عليه الجمـاعةَ ، وأطلقه على غايةٍ من التبجيل والإكـرام

« فدخلتْ فيروزاً خَجْلةٌ من رجوعه إلى مملكته بعْدأسْرِ ملك الهياطلة له وتَعْفِيرِه به [3] ، وحدَّثته نفسُه بمعاودة قتاله ، فخرج إليه . وسوّلت له نفسه أنه إنْ حَمَل الحجر حتى يدخُل به بلد الهياطلة لم يَحْنَثْ فى يمينه ، فحمله بين يديه وسار بجمع كثير . وخرج إليه ملك الهياطلة ، فالتقيا فى مُنْتَصَف طريقَيْهما

« فلمّا ترا آى الجمْعان ، آنفرد ملكُ الهياطلة عن جمعِه ، وسأل فيروزاً مُوَازاتَه ليسمع منه شيئاً . فبرَزَ فيروز . فقال له : « أنا وإيّاك فى قَبْضة من حَنِثْتَ فى اليمين به ، وهو عزّ وجلّ يشكرُ للمحسن إحسانَه، ويعاقب المسيءَ بإساءته . وقد أنعمتُ عليك ، وأحسنتُ إليك، وأنا أُخَوّفك الله وأحذِّرُك سَطَواتِه ، فإنى أعلم أنّ حياءَك مما جرَى عليك هو الذى رَدَّك ، فينبغى أن يكونَ استحياؤُك من الله عز وجل أشدَّ من

---

(١) منّ على الأسير : أنعم عليه بإطلاقه بعد الظفر به

(٢) المفارقة : العهد الذى يقع عليه الاتفاق بين اثنين ثم يفترقان على الوفاء به

(٣) فى الأصل : « وتمعيره به » ، وهى محرفة . عفره وعفر به : ألصقه بالعفر وهو التراب ، يريد : أذله وحقره

استحيائك من خَلْقه . وليس يُخْرِجك من يمينك حَمْلُ هذا الحجر بين يديك ، لأنّ اليمين إنما تكون على نِيّة المستحلِف لا على نِيّة المستحلَف . فتدبّر قولِى ، واعلَمْ أن من سَمِعَك من أصحابى على غايةٍ من الثقة بالله فى نصره ، ومن سَمِعك من أصحابك على ذُعْر من أن تَهْلِكَ بحَوْبِك [(1)] » . فقال له : « لستُ أرجع عن قتالك »

« فأمر أن تُرَكّب الصحيفةُ على أطول رمحٍ فى العسكر وحَمَل عليه ، فهُزِم جيشُ فيروز ، وقُتِل فيروز فى المعركة »

* * *

ابن الزيات والمتوكل

٣٤ — وسمعتُ أبا جعفر محمد بن هرثمة يقول :

« كان محمد بن عبد الملك الزيات يسعى على المتوكّل — فى أيّام الواثق — ويحرّضه عليه ، فتغيّرتْ عليه نيّته ، حتى أدّاه ذلك إلى حبسه عند محمد بن عبد الملك

« فسمعت المتوكل يقول — فى اليوم الذى تقدَّم فى إدخاله إلى التَّنُّور الحديد [(2)] — : لم يُمْنَ أحدٌ بمثل ما مُنِيتُ به من ابن الزيّات ! ضَيَّق علىَّ محبسى ، ومَنَعَنى مما اقتضَتْنِيه عادَتى . وكنتُ قد رَبّيت

---

(1) الحوب : الإثم العظيم

(2) كان محمد بن عبد الملك الزيات الوزير قد اتخذ تنوراً (موقداً) يعذب فيه من يتعمد عقوبتهم . فاذا بلغ بأحد العذاب وقال له : « ارحمنى أيها الوزير » يقول له : « الرحمة خور فى الطبيعة » ، فلما أدخله المتوكل فى تنوره ، استعاذ به وقال ما كان يقال له : « ارحمنى يا أمير المؤمنين » . فقال له : « الرحمة خور فى الطبيعة »

وفرَةَ فلم يُطلق [لى] تَنظِيفها [1] ، فكثُرت الدَّوَابُّ فيها . وتأدّى ذلك إلى والدتى ، فكتبت إلى الواثق رُقعةً ، فقال لمحمد بن عبد الملك : « أطلِقْ لجعفر طَمَّ شَعَرِه [2] ، وتنظيفَ ثَوْبه وتطييبَه ! » . فانصرف كالمَغِيظ وضَرَب الموكَّل بى ، وقال : « تركتَ مَحْبِس جعفرٍ شارعاً من الشوارع حتى سَهُل شكوى أُمِّه ! » . ثم أمر بإخراجى ، فخرجت ، فوجدتُ أمارات الغضَبِ فى وجهه ، فوقفت ساعةً لا يرفَعُ فيها وجهَه إلىَّ ، ثم قال : « نِطْعٌ [3] » ، — فأوهمنى أنَّ الواثق أمر بضَرْب عنق — فبُسِط بين يديه ، ثم أوْمى إلى الغلمان بإدخالى فيه ، ولم أشُكَّ فى القتل ، ثم قال : « الحجّام [4] » ، فقلت : « أظنّه يَخْلَع أضراسى قبل قَتْلى » ، وأنا فى سائرِ هذا قائمٌ . فلمّا وافى الحجّام قال : « احلِقْ شَعَره » ، فأجلسنى يحلق شعرى . فآليتُ على نفسى أنّى لا أستبقيه لحظةً إن ظَفِرْتُ بالخلافة » . فمات محمد بن عبد الملك بالتنور فى اليوم الثالث »

✲ ✲ ✲

---

(١) الوفرة : شعر الرأس إذا بلغ إلى شحمة الأذن . أطلق له أن يفعل كذا : أذن له

(٢) طمّ شعره : جزّه ، أو عض منه ولم يأخذه كله

(٣) النطع : فراش من جلد ، وأكثر ما يوضع عند القتل ليكون فيه الدم لئلا يفسد البساط

(٤) الحجام : هو الذى يخرج الدم الفاسد بالمحاجم التى تمصه ، وكان الحجام فى زمانهم يتولى بعض الطب كخلع الأضراس وعلاجها وما إلى ذلك

ابن سليمان وجلاد

٣٥ — وحدّثني نسيمٌ خادمُ أحمد بن طولون، قال:

«صار إليّ ابن سليمان بن ثابت — وكان ابنُ سليمان هذا يكتُب لخادمٍ يعرف بشُقَيْر، يتقلّد الطِّراز من خِدَم السلطان [1]، ثم عمل سليمانُ بعد ذلك لأحمد بن طولون على أملاكه — ومعه رُقْعةٌ، فقال: «توصِّلها لي إلى الأمير؟». فقرأتُها، فكان يذكر فيها أن شُقَيْراً أودَع أباه أربع مائة ألف دينار. فلمّا قرأها الأمير قال: «انظُر ما تَقُول واصدُقْنِي عنه!»، فقال: «الأمرُ والله على ما وصفته للأمير»، فقال: أمْسِكْ عن هذا، واطوِ مجيئَك إليّ عن أبيك وعن سائر النـاس، وانصرِف مَكْلُوًّا [2]»

فقال: «فكثُر تعجُّبي من إمساكه عن ذكر هذا لأبيه. فلم يمض حولٌ حتى مات سليمان بن ثابت، فأظهَر غمًّا به وتفجُّعاً عليه. ثم دعا بابنه الرافعِ للرقعة، فردّ إليه ما كان بيد أبيه من أملاكه، وضمّ إليه من الرجال مَنْ تَقْوَى به يدُهُ. وأقام به شهوراً ثم دعاه وأنا قائم بين يديه، فقال له: «كيف حالُك مع مُخَلَّفِي أبيك؟ وهل أنـكرتَ شيئا منهم؟»، فقال: «قد أعزّ الله جانبي بالأمير ومَنَع منّي»، فقال له: «احمل إليَّ الأربعمائة ألف التي عندكم لشُقَيْر الخادم»، فَلَجْلَج، فردّ أمرَه إلى أحمد بن إسماعيل بن عمّار، وأمره بمُطَالبته بالسَّوْط.

(١) الطراز: هو الموضع الذى تنسج فيه الثياب — معامل الثياب

(٢) كلأه: حفظه وحرسه، ومكلوءاً محفوظاً محروساً، وتركت الهمزة فصارت (مكلواً)

فضربه خمسين سوطا، واصطفى ما كان له [1] ، فلم يجد عنده بعض ما تقوّله على أبيه. وعاود مطالبته، فضربه مرّةً أخرى فمات

فقال لى : « فعجبتُ من هلاكه بهذا المقدار من الضّرب . فأُخبرتُ أنّ هذا المضروب كان يستزيرُ الفواسدَ من النساء فى وُفور حاله [2] ، فزارته امرأةٌ كانت رَبيطةَ جلّادٍ بالسوط [3] ، وعلم الجلّاد بذلك فبكّر إليه ووقف له ، حتى إذا خرج ، انكبّ على فخِذه وقبّله ، ثم قال : « ياسيدى ! قد أغناك الله عن مَسَاءَتى بما بسطه من الرزق عليك وظاهَرَه من الإحسان لديك [4] ، وكانت مُهْجتى عندك البارحة . فإن رأيت أنْ تهَبَها لى ! فلكَ منها عِوَضٌ ، وليس لى عنها مَعْدِل ! » ، فصاح فى وجهه وأمر بإبعاده . فلمّا شُدَّ بالعُقابين [5] ، تقدّم الجلّاد فضربه ضربَ القتْل فأتى على نفسه »

* * *

العمرى وغلمانه

٣٦ — وحدثنى نسيم الخادم أيضا :

« أنّ أحمدَ بن طولون كان مذعوراً من خُروج أبى عبدالرحمن

---

(١) اصطفى واستصفى : استخرج أكثر ماله وخياره

(٢) استزاره : طلب زيارته . ووفور الحال : سعته ووفرته

(٣) الربيطة : هى فى اللغة الدابة ترتبط للخدمة ، وأراد بها هنا المرأة تربط فى المنزل وتبقى لحاجة سيدها وخدمته ومتاعه وتكون من سواقط النساء

(٤) ظاهر الإحسان : ضاعفه وأكثره

(٥) العقابان : خشبتان يشبح الرجل بينهما مشدوداً فيجلد ، وهى من آلات التعذيب

العُمَرِىّ [١] ، فوافاه الخبرُ بقتلِ غلمان أبى عبد الرحمن إياه وانتشارِ أمره . ثم صار إليه جماعة تقارب العشرة ومعهم رأس فقالوا : « نحن غلمان العُمَرىّ ، وهذا رأسه ! » . فجمع الخاصّ والعامّ وأدخلهم إليه ، واستحضر قوماً استأمَنُوا إليه ، فسألهم عن الرأس ، فأجمعوا على أنه رأس أبى عبد الرحمن ، وأنّ الغلمان من خاصّته .

« فقال أحمد بن طولون لهم : « هل كان مسيئا إليكم ؟ » . قالوا : لا والله ، ولقد كان مُحسِناً إلينا ، ومُفْضِلا علينا » . قال : « فما حَمَلكم على قَتْله ؟ » ، قالوا : « طلبنا الحُظْوَة عندك ، والمكانةَ منك ! » ، فقال : « قتلتم مَوْلاكم المُحسِنَ إليكم بالتطرّب [٢] إلى المزيد ؟ » .

« ثم أمَرَ بهم فشُقّ عن جماعتهم [٣] ، وأخذتهم السِّياطُ حتى سَقَطُوا وضُرِبوا على رؤوسهم بالشُّدوخ حتى ماتوا جميعا [٤] . وأمَرَ بدفن رأسِ أبى عبد الرحمن »

* * *

متسلط عامل ٣٧ — وسمعتُ أبا عُبَيد علىّ بن الحسين القاضى يحدّث قال :

---

(١) انظر ص (٧)

(٢) تطرب : أخذه الطرب والفرح ، وتطرب إليه : اهتز له وطمع فيــه

(٣) شق عنهم : أى شقوا عنهم ثيابهم يهيئونهم للجلد بالسياط

(٤) الشدوخ : جمع شدخ ، وهو الرخص الطرى من الشجر ، يضرب به حتى يشدخ رأس المضروب

«كانت لى بواسط حِصَّة أُؤَدِّى عنها إلى السلطان خَرْجا [1] فقدِم علينا عامِلٌ قد جُمِّع من الظُّلم ، وسوءِ التسلُّط ، وفَظاظة الطبْع . فجمع العامِلين بأسْرهم على التَّحيُّل له بما لايُوصَل إليه من أملاكهم ، ولا يستحقُّه عليهم ، فضرب قوما ، وآستخفَّ بآخرين ، فقال له رجل ممَّن حضر : « إن رأيتَ أن تؤخِّرنى إلى نصف النهار ! » ، فقال له : « لعلك ممّن يقول : إنّ من عَمودٍ إلى عَمود فرَجاً ! » فقال له الرجلُ : « أنا والله أعتقد من لحظة إلى لحظةٍ فرجا يُرْجى مِن الله » ، فتضاحك من كلامه . فوالله مامضت ساعة حتّى دخلتْ إلينا - فى الموضع الذى كان فيه - رَعْلَةٌ من الخوارج وهى تقول: «السُّلَيطِين السليطين!» [2]، فقطَّعتْهُ بأسيافها وخرجتْ، ولم تقتل غيره ، ولا طلبت شيئاً لأحدٍ . فعلمتُ أنهم عقُوبة آعْتَمدته »

* * *

عامل الصدقة ومتظلم

٣٨ - وحدّثنى عمر بن يزيد البَرْقىّ - وكان جميل المذهب - قال :

«حضرتُ مُصَدِّقا شديدَ الاستحلال [3] ، بعيداً من الرأْفة ، وهو جالس على رابيةٍ ، وبين يديه حِوَاءٌ يحتازُ به ما يُحصِّل له من

---

(١) الحصة : النصيب الموروث من الأرض ، والخرج : المال الذى يؤدّى على الأرض

(٢) تصغير سلطان

(٣) المصدق : هو الذى يأخذ حقوق الصدقة من الإبل والغنم

الإبل [١] . قال : « فعُرِضَتْ نَعمُ رجلٍ حسنِ الطريقةِ ، مُتَعالَم بعفافِ الطُّعْمَة [٢] . فتخيَّر عليه المصدِّق ما احتازه من إبله ، وآستعملَ من سوءِ التحكم عليهِ مالا يصبر عليه غيره . فأمسك ، ثم نظر بعد آنفصال ما بينهما إلى فصيلٍ سمينٍ كان فى إبله ؛ فقال لغلمانه : « خُذُوا هذا الفصيلَ حتى يُصْلَح لنا غَدَاءً » ، فقال صاحبُ الإبل له : « قد أخذت زيادةً على حقك ، فما هــذا ؟ » ، قال : « لابدَّ لى من أخذه » ، قال : « فإنّى لا أسلِّمه »

فأمر بوَجْءِ عنُقِه [٣] ، وأُخذت مقادَتَه من يده ، فصاح بأعلى صوته : « كُلْ هذا بِحَيْنِك ياجبَّارُ [٤] ! » . فحلف لى عُمَر أنه جاءَ من الحِواءِ فحلُّ - وخرج منه وهو يَرْغُو - ، فأخذ بعضُده ، ولم يزَلْ يضربُ به الأرضَ حتَّى قتله . وانصرفَ الرَّجل بفصيله »

* * *

عدى بن زيد والنعمان

٣٩ - وفيما أخبرَ به الهيثم بن عدىّ قال :

« كان عدىُّ بن زيد قد تقدّم عند كِسرى بَرْوَيزَ فى ترجمة

---

(١) الحواء : المكان الذى يحوى الإبل وغيرها من الأشياء ، أى : يضمها ويجمعها

(٢) الطعمة : وجه الارتفاق والاكتساب

(٣) الوجء : اللكز ، أو ضرب العنق بالأيدى أو بالحديد

(٤) فى الأصل . « بعينك » وقوله « كله بحينك » أى : كله ومعه حينك والحين : الموت

العربيّ إلى الفارسيّ ، وكان رجلاً جاراً للنعمان بن المنذر ، فرام منه النعمان أن يكون عيناً له على كسرى ، فامتنع من ذلك ، ولم يرْض بهذه السَّجيَّة [1]. فتركه النعمان حتى اطمأنّ إليه ، ثم سأله أن يزورَه. فكلَّم كسرى ، وسأله أن يأذنَ له فى زيارته شهراً واحداً ، ونصَّب عَدِيٌّ ابنَه مكانَه — وكان حُلْو الشاهد [2] مضطلعا بما يُسنَد إليه — ، فأذن له . فلمّا حَصَل فى يد النعمان قَتَله ، وكتَب إلى ابنه يُخْبِره بأنه ماتَ حتفَ أنفه [3] ، وأنَّه على غاية من الأسَى عليه [4]. وتأدَّى خبر عديٍّ إلى ابنه على الصحّة ، فلم يَخْرَق فيه [5]. وأقام يتتبَّع غَوائله ، ويعمل الحيلة فى افتِرَاص وِتْرِه [6]

فجرى فى يوم من الأيام ذكرُ الجوارى بين كسرى وبين ابن عديٍّ — وكان أبرويز مُسْتَهْتَرا بهنّ — ، فقال ابن عديّ : « أحسنُ

---

(١) السجية : الطبيعة والخلق والخصلة

(٢) حلو الشاهد : حلو العبارة واللفظ جميلهما . يقال : ماله رواء ولا شاهد ، أى : ماله منظر ولا لسان يشهد له

(٣) الحتف : الموت نفسه ، وحتف أنفه : أى أن موته كان بخروج روحه مع تنفسه من أنفه وهو على فراشه ، لم يقتل فى حرب

(٤) الأسى : الحزن

(٥) خرق فى الشىء : دهش ثم تعجل فلم يحكم عمله . يقول : لم يتعجل

(٦) الوتر : الثأر . افترص الشىء : اغتنمه وانتهزه عند سنوح الفرصة

النساء حُرَقة بنت النعمان » . فكتب أبرويز إلى النعمان كتاباً يأمره فيه بحمل حُرَقةَ ابنتِه إليه . فعظم هذا على النعمان ، وكتب إليه كتاباً يذكر فيه قَشَفَ [1] تربيةِ العربِ لأولادها ، وتقصيرِهم ببَذاذة الهيئة وسَخِ المِهْنة [2] ، وأنَّ فى عِينِ العراق للملك عِوَضاً منهن [3] ؛ وأنفَذ الكتاب إلى كسرى . فأمر كسرى ابنَ عدىّ أنْ يقرأه عليه ، فأمَرَّه على طَرْفِه ثم ألقاه ، [4] وضرب بيده على جَبينِه ، وقال : « لا يستطيعُ لسانى مواجهةَ الملِك بما فيه ! » ، فعزم عليه الملك ليُخْبِرَنَّه . فقال : « ابنتى لا تَصْلُح لك ، فإذا قَرِمْتَ إلى الجماعِ فعليك بالبَقَر » [5] . فغضب كسرى ، وأنفذ رُسُلا إليه فأُشْخِص . فلمّا قرب من مقرّ كسرى ، أخرج أربعةَ آلافِ جارية بالحُلِىّ وفاخرِ الكُسْوَة ، وأذِن له ، ثم قال له بالفارسية : « يا كاب ! مَنْ كان له هؤلاء يصلُح له مجامعةُ البقر ! ؟ » ، وأمر بشدِّ يديه ورجليه ، وألقاه فى الأرض ، وأطلق الفيَلَة عليه فوَطِئته ، حتى مات تحت قوائمها »

(١) القشف : رثاثة الهيئة وسوء الحال وضيق العيش . ومنه المتقشف : الذى يتبلغ بالقوت وبالمرقع

(٢) البذاذة : رثاثة الهيأة وترك الزينة . والمهنة : الخدمة والعمل والامتهان

(٣) العين: جمع عيناء . وهى المرأة الواسعة العينين الجميلتهما والعيناء أيضاً : البقرة لاتساع عينيها

(٤) أمرّه على طرفه : أى جعله أمام عينيه وأسرع القراءة

(٥) قرم إلى الشىء : اشتهاه وهم به

* * *

شريف ومريض

٤٠ — وفيما جاء به الزُّبَيْرُ بن بكَّار ، قال :

« اجتاز رُجل من أشراف المدينةِ بمريض مُلْقىً على كُناسةٍ قريبة من منزلِ رجل من الأولياء اختَلَّت حاله (١) ، ومَرِض ولا قَيِّمَ عليه (٢) وتبَرَّم به رُفقاؤه فأخرجوه من منزلهم ، وهو مُلْقىً في الطريق . فأمر الشريف بحمله إلى منزله ، وتقدَّم إلى ابنة عمه في حُسْنِ القيام عليه بحَشَمِها ، وأن تُرَفِّه عيشَه إلى أن تقْضِيَ عِلَّتُهُ . فابتدره كُلّ من في منزلِ الشريفِ بالخدمة حتى تكاملت صحَّته ، وصار في منزلهم كأحدهم ، وقَفَلَ إلى دِمَشْق (٣)

فلمّا كان في الوقت الذى توجه جيشُ يزيد للحَرَّةِ (٤) ، وَافَى فوَقَف على باب دارِهم ، فظنُّوا به أنَّه وَافَى لحمايتهم ، وحُسنِ المدافعةِ عنهم ، ليَقْضِيَهم سَوَالِفَهم لديه (٥) . فدخلَ الدار ومعه ثلاثة غلمان ، فلما تمكَّن منها أخذُوا في جَمْع الأثاث ، فقال لهم الشريف : « ماهذا؟ » ؛ فقال : « إنى استوهبتُ دارَك بما فيها من الأمير ووهبها لى ،

(١) الأولياء : جمع ولى ، يريد عمال الدولة . واختلت حاله : افتقر

(٢) القيم : المدبر الذى يقوم على أمره

(٣) قفل : رجع

(٤) وقعة الحرة : هى الوقعة التى انتهكت فيها حرمة مدينة رسول الله فأبيحت ثلاثاً لجند يزيد بن معاوية ، يقتلون الناس ويأخذون المتاع والأموال

(٥) السوالف : جمع سالفة ، وهى الإحسان السابق ، أو الإساءة السابقة

وكنتُ أحقّ الناس بها، إذ كانت الأحوال بيني وبينكم وَكِيدة»، فقال له الشريف: «رجعتَ يا ابن اللّخناء إلى لُؤْم أصلك، وفساد مُرَكَّبك»، ثم عَلاه بسيفه. وفرّ الغلمان، وهَدَأتْ وقْدَةُ الفتنةِ. وطُلَّ دَمُه[1]»

***

مولى للعباسيين وأموي

٤١ — وحدَّثني نافع بن مَصْقَلة الْحِمْصِيّ، قال: سمعتُ أبي يقول:

«رأيت مشايخنا مجتمعين على أمرٍ لحقهُ أسْلافهم: أنَّه كان يسكن بِحِمْص شابٌّ من أهلِ العراق، حَسنِ الصُّورة، ليّنِ العريكة، فأقام معهم مدة. ثم صار الأمر بعدَ ذلك إلى بني العباس، فتقلّد ذلك الفتى حمص، وكان مولًى من موالي أبي العباس. فلما دَخلها قصد إلى دار رئيس كان بها — من أصحاب بني أمية — فذبحَه فيها وجماعةً من غلمانه، ثم خَرَج

فأحسن السيرةَ، وألان الجانبَ، فقيل له: «ليس يُشْبِه ماأنت عليه، مافرَط منك إلى الرجل الذي ذَبحْتَه وشَمِلَه!»، فقالَ: «اسمعوا مِنِّي ماجرى عليَّ بِإِنَّيه

«اجتزتُ به — وقد نظّفتُ أثواباً لي لاأملك غيرَها، وقد دُعيت إلى أمرٍ لايسعُني التأخُرُ عنه، أحتاجُ فيه إلى حُسنِ الهيئة وإظهار التجمُّل، ومعي رسولُ مَنِ اسْتَحْضَرَني — وهو قاعدٌ على الباب،

---

(١) طلّ دمه: أهدر وأضيع، فلم تكن له دية ولا ثأر

فرائت دابتي[1] بحيث تقع عليه من رَحَبةٍ مبلَّطة لداره . فأمصَّني[2] ، وأمر الغلمان بترجيلي وضربي ، فركبتني أيديهم . ثم حلف ألّا أبرَح حتى أكنُسَ رَوْث دَوَابّه بيدي في كُمّي ، وأحمله في ثوبي وحِجْري ، وأُخِذْتُ بجُرِرت إلى ذلك ، ولم تزل حاشيته تضحك مما نزَل بي ، فحدّثت مولاىَ ، فاستحلفني بحقّه على غليظِ ما أتيْتُه إليه »

✡ ✡ ✡

أحد الأكاسرة وولده

٤٢ — ومما قرأته من سِيَر العجم :

أن جماعة المنجّمين حكموا لبعض الأكاسرة أنَّ ابنه يقْتله ويتولَّى ملكه ، فعَمَد كسرى إلى سُمومٍ وَحِيّةٍ فجعلها في قوارير[3] ، وختمها وكتَبَ عليها : « دواءٌ للجماع ، الشَّرْبة مثقال » ، وكانت وَزْنة قيراط تقتُل من تلك السموم . وقال : « إن كان الأمر كما حكاه المنجّمون فسآخذ بطائلتي منه »[4] . فعدا عليه ولده وقتله ، وكان شديد المحبّة للجماع ، ورأى تلك القوارير ، فشرب مثْقالا فمات

✡ ✡ ✡

مروان الجعدي وخالد بن سهم

٤٣ — وحدثني أحمد بن أبي يعقوب ، قال حدثني أبي ، عن جدّي

---

(١) رات الفرس وغيره من الحيوان : أرسل روثه ورجيعه

(٢) أمص الرجل : إذا شتمه فقال « يامصان » وهو اللئيم الراضع . يريد سبه سباً قبيحاً

(٣) سم وحىٌّ ، وموت وحىٌّ : سريع

(٤) الطائلة : الثأر

واضح ، قال :

«سمعت خالد بن سهم ، يحدثُ المنصور – وكانَ هذا الرجل خاصاً بمروان بن محمد الجعدى [1] – فطلب منه مروان جارية له كان يُحبُّها . وتجرَّم عليه [2] ، فأطال حبسَه ، وأخذ الجارية منه . وكان ذَا رأيٍ ونَجْدَة [3] . فلما استفحل أمر أبى مسلم وكسر عساكرَ مروان ، أخرجَه من الحبس ووَعَده جميلاً – ، قال خالد :

«كان مروان يضحكُ من زِيّ المسوِّدَة [4] ويقول : «لو أسَرناهم مابلغنا بهم مابلغوا بأنفسهم من التشويه والشُّهْرة ! [5] » . فلما آضطُرَّ إلى مُكافحتهم ومواقعهم ، رأيته قد تَهَيَّبَ مُعارَكَتهم ، فقال لى : « ياأبا يزيد ! – وما كنَّانى قبل ذلك اليوم – ، إنّى قد آرتَعْت ، فهل ذلك بَيِّنٌ فيَّ ؟ » ، قلت : « بلى يا أمير المؤمنين ! » ، – وكنت أداجِنُه ، [6] ويَسُرُّنى حُؤُول أمره [7] ، فقال : « ما أجِدقلبى يُطيق مُواقَعتهم ! » ، فقلت : « إن كانَ هذا ، فتحصَّنْ منهم بالانهزامِ ، فإن خيلك أنْجَى من خيلهم [8] »

(١) هو آخر خلفاء بنى أمية المسمى « مروان الحمار »
(٢) تجرّم عليه : تجنى عليه مالم يجنه من الذنوب والجرائم
(٣) النجدة : الشجاعة والمضاء والبأس الشديد
(٤) المسوّدة : هم العباسيون ، فقد جعلوا شعارهم السواد
(٥) الشهرة : الفضيحة والشنعة الظاهرة
(٦) داجنه : لازمه وأحسن مخالطته بالرياء والمداهنة
(٧) حال الأمر يحول حؤولا : تغير وتبدّل وتحوّل فزال
(٨) أنجى من خيلهم : أسرع نجاء ، والنجاء : العدو السريع

فانهزم ، وتوقَّف أصحابُ أبي مسلم عن طلبه ، فلما بلغ إلى سَوَاده[1] قال لى : « قد عزمتُ على الدخول إلى بلد الروم » . ـ وكان من أصوب تدبيرِه ـ فنَفِسْت عليه بالرَّأى[2] ، وآستعملتُ مغالطته فقلت : « تدخلُ بأحداثٍ من وَلَدك وشَمْلِك[3] مستجيرين بكافرٍ قد أَمِن سِرْبُه[4] ، واستقام أمره ؛ ولعلّ ولدَك يروقهم مايرونه فى مملكته ، فيحملُهم ذلك على التنصّر ! ولأَنْ تمادى فى مسيرِك حتى تدخل مصر فتجد فيها الرجال والكُرَاع والمالَ[5] ، تملك بها آختيارَك » . فركَن إلى قولى ، فسرْنا . فلما دَخلْنا مصر خَرَج إلى صعيدها ، واستأمنتُ إلى عامرٍ ـ لحالٍ كانت بينى وبينه ـ ، وقُتِل ببُوصِير الأُشْمُونين »

* * *

احمد بن طولون وابن المدبر

٤٤ — ولما قدِم أحمد بن طُولون إلى مصر متقلِّداً بها عَمَل المعونة ، أهدى إليه أحمد بن مدبِّر من دِقِّ مصر[6] ، ودوابِّها ، والرقيقِ المجلوب إليها ، ما مقداره عشرة آلاف دينار . فردَّ ذلك

---

(١) سواد العسكر من الجيش : ما يشتمل عليه من الآلات والدواب ، ويكون مجتمع سواد الجيش (المعسكر)

(٢) نفس عليه الشئ : حسده عليه وضنّ عليه به

(٣) الأحداث : الصغار ، جمع حدث

(٤) أمن سربه : أى اطمأنت نفسه ، والسرب : النفس

(٥) الكراع : اسم لجماعة الخيل والسلاح

(٦) دق مصر : هى الثياب الرقيقة الدقيقة الصنع التى كانت تصنع بها ، وتعرف بالقباطى جمع قبطية

عليه ، وذكر أنه لا حاجة له بشيء منه . فثقل ذلك على ابن مدبّر ، وقال : « ما ينبغي أن يثق السلطانُ - بمن لم يكُنْ لعشرة ألف دينار في عينه قَدْرٌ - على طَرَفٍ من أطراف مَمْلكته ! »

فلما مضت أيامٌ بَعَث إليه : « قد كنتَ أنفذْت إليَّ طائفةً من برِّك فرددتُها عند وُقوع الاستغناء عنها ، وقد بلغني أنّ عندك مائةُ رجل من مولَّدي الغُوْر [1] ، وبي إليهم أمسُّ حاجة » . قال ابن المدبر : « قد ظَهَرت في هذا الرجل علامةٌ أخرى ، يَرُدُّ الأعراض والأموال ، ويستهدِي الرجال ! »

وكان حسينُ بن شعرة - مضحكُ المتوكل على الله - قد انضوى [2] إليه ، فحَمَى به ضياعَه وأملاكَه . ووقف على استثقال ابن مدبّر لأحمد بن طولون ، وأخرج حِكايته في تزَمُّتِهِ [3] وكلامِهِ ، فيضحكُ ابن مدبّر ومن حضره . فاتصل ذلك بابن طولون ، فأحضره ثم قال له : « بلغني أنك تتنادَرُ بي [4] ، ولك في الناس مندوحةٌ فاحذرني ، فإنك إن وقعت لم ينفعك ابن المدبّر ولا غيْرُه » ، فجحد هذا واعتذر إليه منه . ثم انصرف إلى ابن المدبر وقال :

---

(١) الغور : بلاد موحشة بين هراة وغزنة ، كان يؤتى منها بسبي يولد ويربى

(٢) انضوى إليه : مال إليه ، واحتمى به

(٣) التزمت : الوقار والسكون وقلة الكلام والضحك ، وكان ابن طولون من أشد الناس زمتاً

(٤) تنادر به : تهزأ وسخر وجعله من نوادره

« ياسيدى ! لو شاهدتَ أحمد بن طولون يُوَنّبنى ! » ، فقال « ماقال لك ؟ » ، قال : « آصبِرْ حتى أرِيَك حكايةَ صُورَته ومُعَاتبته » ، ثم تلبَّس وجَلَس يَحْكِيه ويقتَصّ مالقِيَه به [١] . ثم اتصل ذلك بأحمد ابن طولون فأمسَك عنه ، وتتبّع غوائله

« وآضطربت الرعية لِنِزاعِ السِّعْر [٢] ، وقد بلغ ثلاثة أرادبّ حنطةٍ بدينار . فركب وتقدَّم بعُقوبة القمّاحين ، وآزدحمت النظّارَة من السطوح عليه . فوقع مِرْكَنٌ فيه ريحان إلى الأرض [٣] ، بمزاحمة مَنْ تشوَّف إليه من النساء [٤] ، فَسَح كَفَلَ دابّة أحمد بن طولون ، [٥] فسأل عن الدار : « لمن هى ؟ » ، فقالوا « لحسين بن شعرة ! » ، فأحضره وضربَه ثلاثمائة سوط ، وطاف به . وكان ماأوقعه به من أجل متقدّم سَوَالِفِه إليه ، ولم يفلح الحسين بن شعرة بعدها

« وزاد أمر أحمد بن طولون فى القوّة وزيادة المال ووفور الكفاية ، حتى تهيَّبه ابن مدبر . فحدثنى أبو العباس الطَّرَسُوسِىّ ، أنه سمع أحمد بن طولون يقول له : « ياأبا الحسن ! أنشُدُك الله إن تعرَّضتَ لى ولا تَرَسَّمْتَ بعداوتى [٦] ، فقد آجتهدت فى آستصلاحك

---

(١) اقتص الشىء تتبعه واحدة واحدة
(٢) نزاع السعر : ارتفاعه وغلاؤه
(٣) المركن : إجانة يستنبت فيها الرياحين (قصرية)
(٤) تشوف إليه : تطلع إليه وتطاول لينظر
(٥) مسح كفلها : مس عجزها ومؤخرها
(٦) ترسم بالشى : جعله رسما له يعرف به

فلم أصِلْ إلى ذلك » ، فقال له ابن مدبر : « والله ماأرُدُّ أمرك فيما أتقلَّده ، وإنى فيه كالمقيم من قِبَلكَ ، فأىّ شىء أنكرت علىّ حتى أتجنبَه ؟ » ، فقال : « أُنكِر عليك المكاتبةَ إلى الحضرة[1] ، وقد قلّدْتك البَغْىَ » ، فحلف له ابن المدبر أنه لا يكتب إلا بشكره

« وصُرِف ابن المدبّر عن مصر بأبى أيوب — ابن أخت أبى الوزير — فلما أجمع الشخوص عنها قال له أحمد بن طولون : « ياأبا الحسن ، لو أردتُ بك سوءًا لقَدَرْتُ عليه ، وأحتاج إلى أن تجدِّد تلك اليمين » ، فحلف له بالمحرَّجات أنه لا يألُو حرصاً فى تزيين آثاره[2] وتطييب أخباره ، وأشهد عليه اللهَ بذلك . وخرج عن مصر متقلّدا للشام فأقام مع ماجور

« فحدثتنى نَعْتُ مولاة أحمد بن طولون : وأمُّ ثلاث بنات كُنّ له — فقالت : « كنت عند مولاى بائتةً فسمعته يحلُم فى نومه ، فخفتُ أن أنبّهه فينكر علىّ هذا ، فانتبه وجلَس ومسح عينيه وقال : « خيرٌ إن شاء الله » . فسألته عما رأى فقال : « رأيت ابن مدبّر قائماً فى وسط بريّة ، ومعه قوسٌ مُوَتَّرةٌ وسهام ، وأنا تِجاهَه قائم ، ومعىَ جميعُ السلاح إلا القوس ، وبيننا نَهَر ، فكأنه يسدِّد السَّهم نحوى ويرمى ، فأخطأنى . وكأنّ قائلا يقول : « لو رماك يومه كلَّه لما أصابك به ، لأنه عاهدك ، ومايضرُّ هذا الفعلُ غيرَ نفسه » فكأنه اشتدَّ

---

(١) الحضرة : يريد حضرة الخلفاء من بنى العباس ببغداد

(٢) لايألو : لايقصر

عليّ انهماكه في الرمى لى ، وليس في يدى غير سيفٍ وشَرْخ وما أشبههما ، [1] لا تعمَلُ في البُعْدِ ، وقد حال النهر بينى وبين العبور إليـــه . فإنّا على هـذا ، حتى نَضَب النهرُ فلم يبق فيه قطرة [2] ، فعبرت إليه ، فكأنى كنتُ كلما قَرُبت منه يصغُر ، حتى صار بمنزلة من يواريه الكَفُّ ، فأخذته بيدى أسْتَطْرِفه [3] ، ثم ألقيته من قامتى على رأسِه فمات . فتأوّلتُ سهامه : المكاتبـةَ فيَّ والتحريضَ عليَّ ، والنهرَ الذى منعنى منه : مَقَام ماجور بدمشق ، ونُضوبَه : موتَ ماجور ، وصغرَهُ : قدرتى عليه ، واحتيازَه في كفِّى : قبضى عليه ، وقولَ القائل لى في السّهام إنها تُخْطِئُك : أن الله لا يُعينه عليّ »

« فحدّثت هذا الحديث سعْدًا الفرغانيَّ ـ غلامَ ابن طولون ـ فقال لى ماسمعت بهذا إلا منكَ ، والذى عندى من خبره مطابق لهذه الرؤيا . وذلك أن الحسن بن مَخْلَد بَرِم بكيْد الكتّابِ وانتقاضِ الأولياء . [4] فكتب إلى أحمد بن طولون يذكُر له رغبتَه في المُقام بمصر . فكتب إليه أحمد بن طولون : « إنما أنا وليُّك [5] ، ومَقَامُ صنيعةٍ من صنائعك ! » .

---

(١) الشرخ : النصل الذى لم يشق بعد ولم يركب عليه قائمه

(٢) نضب النهر نضوباً : ذهب في باطن الأرض وغار وبعد وقل

(٣) استطرف الشيء : وجده طرفة ، أى طريفاً غريباً

(٤) برم : ضاق وضجر ، وانتقاض الأولياء : نقضهم العهود وخروجهم عليه

(٥) الولى : التابع من عمال الدولة

وصوب رأيه فيما آثره . فخرج من بغداد ، وثنى عنانه إلى مصر ، فمنعه صاحب البذرقة (١) . فأنفذ كتباً إلى أحمد بن طولون ، فكان أول ماصدر منها أربعين كتاباً جميعاً بخط آبن المدبر ، يُعظِم فيها أمرَ أحمد ابن طولون ويقول : « إنه قد عزم على أن يجاس خليفةً » ، ويصفه بكل غَدْر ، فعجب منها آبن طولون . ثم مات ماجور ، واحتاز دمشقَ والشامَ ، وأنفذنى إلى الرَّملة فقبضتُ عليه وأشخصته إليه . فأقام مدة فى حبْس ضيِّق ، وجَفْوٍ ممّا جرت به عادته (٢) ، حتى ذهب بَصَرُه ومات »

* * *

ابن المدبر ومتقبل

٤٥ — وحدثنى سهل بن شُمَيْف ، قال :

« رجعت [مَرَّةً] مع أحمد بن محمد بن مدبر إلى داره ، فآستقبلته آمرأةٌ فقالت : « أيها السيّد ! نحن مائة عَيِّل على فلانٍ المتقبِّل ، (٣) وقد ضاعَ شَمْله لحبسه ، فاتّقِ دعوةً تعرُجُ إلى الله مِنّا فِيك ! » ، فقال وهو متهزِّئٌ : « إذا عزمتم على هذا ، فليكن الدعاءُ فى السَّحَر فإنه أنجعُ له » ! قال لى سهل : « فارتعتُ من الكلمة ، فما مضى له شهر حتى تقلد محمدُ بن هلال الخراجَ وصرفه عنه ، واجتمعا عند

(١) البذرقة : هى خفارة الطريق وحراسته ، والمبذرق الخفير

(٢) جفا الشيء جفاء وجفواً : بعد عنه ، يريد ، وابتعاد عن عادته

(٣) المتقبل . هو الذى يتقبل الخراج أى يتكفل بجمعه وإيراده لبيت المال . والعيل : هو الذى يحتاج . إلى من يعوله ويمونه ويتكفله ، والجمع عيال

أحمد بن طولون ، فاهتدى محمّد بن هلال إلى مالم يَظُنَّ أنّه يقف عليه ، لأنه أول ماناظره قال : « رزق الخراج : كذا وكذا ، وأرزاق الدواوين المضافة إليه : كذا وكذا ، فهل قبضتَ جملةَ هذه الأرزاق؟» ، قال ابن المدبر : « نعم ! ماحضرنى كتاب أمير المؤمنين بإطلاق جميع الرزق لك ؛ لأنه يجوز أن يكون استعملك على جميع الأعمال برِزْق الخراج وحده » . فانقطَع [إلى] ابن المدبر، وطالَبَه بالمال ، فقال : « ما يلزمنى ؟ » . ورُدَّ إلى يد محمد بن هلال ، فأُلبس جُبّةً كانت على بعض السَّاسَة ، [1] وأقيمَ فى الطريق على كُناسـة ، وخُتِمت الجبة فى عُنُقه

« فكان أوَّلَ من وافاه الامرأةُ التى قال لها : « يكونُ دعاؤك فى السَّـحَر هو أنجع له » . فقالت : « جزاك الله يا أبا الحسن خيراً ، فقد نفعتنا بأكثر مما ضرَرْتَنا : لأننا جرَّبنا ماأشرتَ به فوجدناه أنجعُ شىء يُلتَمَس [به] » . فبكى ومن حولَه من الموكَّلين به ، وانصرفت المرأة داعيةً له ،

* * *

خمارويه وابن أبى الساج

٤٦ — وكان محمد بن أبى الساج قد هادَن خُمَارَوَيْه بن أحمد ابن طولون ، وحلَف بالمحرَّجات أنه لايشاقُّه ولا يُجهِّز إليه

(١) الساسـة جمع سائس : وهو الذى يقوم على خدمة الدواب ورياضتها

جيشاً أبداً [١] ، وخلّف عنده ابنه - المعروفَ بداود - رهينةً ، فسكن خُمارويه إلى هذا . ثم تواترت الأخبارُ بتجييشه عليه [٢] ، وما آثَرَه من المسير إليـه ، فدعا بابنه وقال : «قد نَقَض أبوك مابيني وبينه ! » ، فقال : «ياسيدى! ما أعرف لى أباً غيرك» . فَرَقَّ له وأجازه ، وأَقَرَّ أَثَرَتَه [٣] ، ثم توجّه إلى ابن أبى الساج فالتقيا بالثنيّة ، فحدثنى أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن القاسم بن إبراهيم بن طباطبا - وكان معه - قال :

«لما ترا آى الجمعان أمَر بإلقاء حصيرِ الصَّلاة فأُلقيتْ ، ونزلتُ معه فصلّى ركعتين ، فلما آستتمّهُما ، أَدْخل يده فِي خُفِّه ، فأخرج منه خَطّ ابن أبى الساج الذى حَلَف فيـه بوَكِيد الأيمـان أنه لايحاربه ، فقال : « اللهم إنى رضيتُ بمـا أعطانيه من الأيمـان بك ، ووثقتُ بكفايتكَ إياىَ غدْرَه [بى] وبحِلفه واجترائه على الحِنث بمـا أكّده لى اغتراراً بحلمك عنه ، فأدِلنى عليـه ! [٤] » . ثم ركبَ ، فرأيتُ مَيْمَنة خمارويه قد انهزمت ، وتبعتها مَيْسَرته ، فحمل فى شِرْذِمَة يسيرةٍ على جيش ابن أبى الساج - وهو فى غايةٍ من الوُفور - فانهزموا بأسرِهم

---

(١) شاقه يشاقه مشاقة : خالفه وعاداه ، من الشقاق وهو غلبة العداوة والخلاف

(٢) جيش عليه : جمع الجيوش لقتاله

(٣) أقر أثرته : أى رضى إيثاره إياه بالأبوة وأقره عليها ، وفى الأصل المطبوع « وأقر أترابه » وهو خطأ بين

(٤) أداله عليه : جعل له الدولة عليه ونصره عليه

فوقف على نَشَز [1] ، وأطفْتُ ومن حضره به ، فاستأمنت إلينا عِدَّة كثيرة . فقلت له : « إن مُقامَنا أيها الأمير مع هذه الجماعة خطرٌ » فأمرني بالمسير بهم إلى مستَقَرّ سواده [2] . فسرتُ معهم - وأنا على رِقْبةٍ من طمع فيه أو كَيْدٍ له - فبلغوا نهراً احتاجوا إلى عُبُوره ، فرأيتهم قد خلعوا الخِفاف وحَطّوا الرحالَ ، وسَلَكوا سلوك المطمئنّ ، فأنِسْتُ إليهم »

* * *

قريب لابن يعفر وعجوز يمانية

٤٧ — وكان فى حارتِنا شابٌّ قد قدم من العِراق ، ذَكِىُّ الروح هادِئُ السَّعْى ، يذكر أنه قَرَابةٌ لابن يَعْفُر القائم كان باليمن . وكان بمصر فى دون قومه ، فأشار عليه من شاهَدَ آبنَ يعفر وسَعَةَ أمره ، بالخروج إليه ، فأخذْتُ له حَجَّةً من بعضِ أهلِنا [3] ، وأضفت إليها بِرّاً يفى بتَحَمُّله [4] ، وخرج . فلقى بمكة عجوزاً يمانِيَةً جليلةَ القدر فيهم ، فعرَّفها موضعَه ، فقالت : « أنا أتكفل بمؤُونَتِك وتحمُّلك ، واْغتنم هذه اليد عند الأمير » ، وحملتْه حتى صارت به إلى عشيرتِها ، فقالت لهم : « إن آبنَ يعفر قتل مِنّا فى العام الماضى رجلاً ، ومعى قرابةٌ له فاقتُلُوه به » ، وآجتمع

(١) النشز : المتن المرتفع من الأرض

(٢) السواد : المعسكر ، انظر ص (٨٥)

(٣) حجة : يريد نفقة حجة عمن مات قبل أن يحجّ وقد وجب عليه الحج

(٤) يريد ، مايقوم بنفقة حمولته فى السفر

الحىُّ ، وتسلَّمه أولياءُ القتيل ، فلما جُرِّد السيفُ اضطرب وبَكى ،
فقال أولياء القتيل : « مانرضى أن نقتل هذا بصاحبنا ، صاحبُنا
شُجاعٌ وهذا جَبَان ! »

فبعثوا به إلى ابن يعفر ، وقالوا لرسولهم إليه : « إنّا لانرضى
أن نقتادَ من هذا [1] » ، فلما وافَى ابنَ يعفر ، دعا له بالسيف
والنِّطْع ليقتـله ، وقال « هَتَكْتَنى فى هذا الحىِّ من العَرَب ! » ،
فقال له وزيره : « إنَّ هذا الفتى خَرَج من فاقةٍ وأمْنٍ إلى موقِف
تُضرب فيـه عُنُقه فاضطرب ، وإنما يقتل الأمير من قادَ
الجيوشَ ، وتطعَّم بحلاوةِ الأمر والنهى فيه [2] ، وتمكَّن من الرئاسة
ثم عدل به طبعه إلى الخَوَر ، والّذى أراه للأمير : أن يعقِد له
الرّئاسة على جَماعته ، ويُنْفِذَه إلى مِهِمَّاته ، فإنَّ أكثر الفضائِلِ
إنما تظهَرُ بحُسْن الارتياض [3] »

ففعل الملك ما أشار به عليه وزيره . فحدّثنى أبو عبد الله محمد بن
عامر اليمانى : أنه دَرَج بهذا التدبير [4] فظهر من شجاعته مالم يُرَ فى
آل يعفر مثـله ، ثم غزا الحىَّ الذى كانت تلك العجوز منهم ، فقتل
أولاداً كانوا لها ، واتّقر به ذلك الحى »

---

(١) اقتاد منه : جعله قوداً أو قصاصاً يقتل بالمقتول من قومه

(٢) تطعم الشىء وتطعم به : ذاقه ليتبين طعمه ، حلو هو أو مر ؟

(٣) الارتياض : الرياضة والتذليل والتعليم . يقال : راضه وروضه وارتاضه

(٤) درج به : درب به وترقى درجة بعد درجة

✿ ✿ ✿

الخيزران أم الرشيد وامرأة هشام

٤٨ — وحدثنى يوسف بن إبراهيم [والدى] . قال حدثنى إبراهيم بن المهدى:

« أنه دخل على الخيزُران أمِّ الرشيد ، فوجدها جالسةً فى الدار المعروفة بها ـ وصارت إلى أم محمد بنت الرشيد بعدها ـ على نَمَط أرْمِينىّ (١) والنَّمَط على بساط أرمِينى ، وعن يمين النَّمَط ويَسَارِه نَمَارِقُ أرمينيَّة (٢) ، وعلى أعلى نُمْرُقَةٍ منها زينبُ بنت سليمان بن على ، وعلى يَسار النَّمارق أمّهات أولادِ المنصور ونسوةٌ من نساء بنى هاشم ، إذ وقفت امرأةٌ على طَرَف البساط فسلَّمت ثم قالت: « يازوج أمير المؤمنين ! أنا مُزَيَّةُ زوج هشام بن عبد الملك ، ثم مروان بن محمد من بعده ، نكَبَها الزمن ، وزَلَّت بها النعل (٣) ، حتى أصارها إلى عاريةٍ ماتستتِر به مما عليها » ، فتبيَّنت الدموعَ تدورُ فى عين الخيزُران . وخافت زينبُ أن تدخلها رِقَّةٌ ، فقطعت على مُزَيَّة الكلام بأن قالت : « ياأمَّ أمير المؤمنين ! اتَّقِ الله أن تُدخلك رأفةٌ بهذه الملعونة ، فتبوَّئى مَقْعَدَكِ من النار »

ثم التفتت إلى مُزَيْة فقالت لها : « بِكِ قَدَام ماأنت فيه يامُزَيَّة ! كأنك نسيتِ دخولى عليك بحرّان ، وأنت جالسة بصحنِ دار مروان ،

---

(١) النمط : ضرب من البسط (جمع بساط) له خمل رقيق وطئ

(٢) النمارق : جمع نمرقة ، وسادة وثيرة موشاة

(٣) زلت به النعل : زلق ووقع وافتقر بعد استواء الحال والنعمة

على هذا النَّمط ، وتحته هذا البساط ، وعن يمينِ نمطك ويساره هذه النمارق ، وعليها أمّهات أولادِ جَبَابرتكم ، وقد مَثَلْتُ فى مثل هذا المكان الذى أنتِ فيه ماثلة [١] ، وأنا أسألك وأتضرَّعُ إليك فى استيهاب جُثّة إبراهيمَ الإمامِ من مروان لئلاَّ يُمثَّل به . وقولَك وأنت كالحةٌ فى وجهى : « ما للنساء والدخولَ فى أمور الرجالِ ؟ » ، ثم أمرتِ بإخراجى من دارك بغِلْظَةٍ ، فلجأت إلى مروانَ فوجدتُه على حالٍ أشدَّ تعطُّفاً على رحمِهِ منك ، وقال لى : « لقد ساءتْنى وفاةُ ابن عمى وما دَبَّرتُ المُثْلَة [به] [٢] » . وقد خيَّرنى بين إطلاق تجهيزه له ، وبين تسليمه إلىّ ، فاخترتُ تسليمه ، وأمر له بجهازٍ فقبلته منه »

« قال إبراهيم : « فالتفتت مُرَيّةُ إلى زينب فقالت لها : « كأنك يابنت سليمان حَمِدْتِ لى عاقبة أمرى فى قطيعتى رحمى ، فأردتِ أن تزيِّنى قطيعة الرحم لأمّ أمير المؤمنين ! » ، ثم التفتت إلى الخيزُرَان فقالت : « صدقت زينبُ فيما ذكرتْ عنِّى ، وذلك الفعلُ منى أحلَّنى هذا المحلَّ . والسعيدُ من اتعظ بغيره » ، وانصرفت . فبعثتْ إليها الخيزران ما أعاد إليها [حالها] ، وكفَّ اختلالها

* * *

اليون ملك الروم وميخائيل البطريق

٤٩ — وحدثنى يوسف بن إبراهيم والدى ، أنه سمع بُطْرُس - [٣]

---

(١) مثل بين يديه مثولا : انتصب قائماً

(٢) المثلة : التنكيل بالميت أو الحى والتشويه . مثل به تمثيلا

(٣) فى الأصل : « بطوس » وسيأتى اسمه فى ص (٩٨)

ـ رَجُلاً ـ يحدِّث إبراهيم بن المهدى :

أن « نقفورَ الملكَ » ـ لما تأدَّى إليه الخبرُ بوفاةِ الرَّشِيد ـ جَعَل ذلك اليوم عيداً للروم ، ثم جعل عيداً أعظمَ منه فى اليوم الذى تأدَّى إليه وقوع الشرّ بين محمَّدٍ الأمِينِ والمأمون ، ثم عَيَّدَ عيداً ثالثا فى الوقتِ الذى بلغه خروجُ أبِى السَّرايا ، ثم خرج إلى البُرْجان ليحاربهم فقُتل

فسأل بطارقةُ الروم بطريقَهم اختِيَارَ رجل ليُقَلَّد مملكَتَهم ، فاتَّفَقَ معهم على رجل من أبناءِ العرب يقال له « اليون » فملَّكُوه ـ وكان ذا نِكايةٍ ـ فدفع عنهم وَقْدَةَ البُرْجان [1] . وقَوِى اليون على ضبط المملكة ، وكانت الروم فى أيامه أعَزّ منها فى أيام نقفور ، إلا أنهم أنكروا عليه بَسْطَ اليد بالهِبَاتِ ، والعفوَ عن أَسْرَى المسلمين . ثم اجتمعت البطارقةُ الاثْنَا عَشَر فى مجلسٍ على نبيذٍ لهم ، فتذاكروا أمرَه ، واستشنعوا فعلَه . وكان أغلظَهم كَدْحا عليه [2] ميخائيلُ البطريق الذى مَلَكَهم ، وَمَلَكتهم امرأةٌ بعده ، فبلغ اجتماعُهم وما قالوا اليونَ ، فوجّه فى يوم سبتٍ إلى ميخائيل فأحضره ، ثم دعا بتِلِّيسٍ من شعرٍ بطول ميخائيل [3] ، فأدخل رجلاه فى قرارةِ التلّيس ، ثم أمر بالتِّلِّيس فرُفع وأقيمَ ميخائيل ، فبلغ رأسُ التليس

(١) الوقدة : الشدة والبأس والالتهاب فى الحرب وما شاكلها

(٢) الكدح : السعى الحديد ، ويريد السعى فى إيذائه والإيقاع به

(٣) التليس : وعاء كالعيبة يسوّى من الخوص

إلى رأسه . ثم أمر أن يُحْشَى رملاً فحُشِى ، فبلغ الرمل فمَ التليس . ثم أمر فخِيط بشَعَر جُمَّة ميخائيل [1] ، ودعا الطَّبّاخين فأمرهم أن يُعِدُّوا له طعاماً كثيراً مثلَ ما يُعَدّ فى الأعياد ، ثم قال للبطارقة – وميخائيل بين يديه على تلك الحال – : « إذا نحن تَقَرَّبنا فى غدٍ ، ألقيتُ ميخائيل فى البحر ، ثم تغدَّينا وجعلناهُ يومَ سرورا ! »

قال بطرس : « فاجتمع البطارقةُ بعد انصرافهم من عنده وقالوا : « هذا العربىُّ قد امتدَّت يدُه إلى ميخائيل ، ونخاف أن يجترئ على كافَّتِنا » ، فأجمعوا على الاشتمالِ على سيوفِهم ، والدخولِ إليه وقتلِه ، ففعلوا ذلك . ثم جلسوا للمشاورةِ فيمن يُنْصَب بمكانه [2] ؛ واستشرف كل واحد منهم إلى أن يكون مَلِكا ؛ فقال أحدهم لسائر الجماعة : « الصوابُ أن تُمَلِّكوا ميخائيلَ ؛ فإنه يرى أنكم أنعمتُم عليه بالحياة » . فاستشرفوا إلى ذلك ؛ ورأوا موضع السَّدَاد منه . فأخرجُوه من التلّيس وغسلوه ، وأحضَرُوا البطريقَ وثيابَ الملكِ فألبسُوه إياها ، وأعلموه أنّ اليون قد قُتل ؛ وملَّكوه عليهم

» ثم صاروا إلى مجلس المملكة والموائدُ منصوبةٌ ، فقالوا له : « تَغَدَّ أيها الملك بالطعام الذى دبَّر اليونُ أنْ يأكله بعد قتلك ! » ؛

---

(١) الجمة : مجتمع شعر الرأس إذا طال

(٢) نصب مكانه : أقيم مكانه خليفة له

فقال ميخائيل «عارٌ بالملك أن يَطْعَم طعاماً وفى عُنُقه يدٌ لإنسانٍ من أوليائه ورعيَّته، قبلَ أن يكافِئَه عنها، وقد أحييتمونى بعد موتى، ولست أطْعَم طعاماً حتى يخبِّرنى كل إنسان منكم بجميع حوائجه فى مُدَّة عمره». فقال كل واحد منهم ما تناهى إليه أمله، مما يصل ميخائيل الملك إليه. فقضَى جميع حوائجهم، وسألوه الأكلَ فقال: «قد فرغْنَا مما يجب لكم، وبَقِى [ما] لله وللملك اليون، ولا يُحْسُن بى أن آكلَ حتى أفعل ما يجب لهما»، ثم قال للبطريق: «ما جزاء من منع مَلِكا عليه من شمِّ النسيمِ ورَوْحِ الحياةِ [1]؟»، قال البطريق: «يُمْنَع النسيمَ ورَوْحَ الحياة»، فقال لهم: «قد حكَمَ عليكم البطريق بما لا يَجُوز خِلافُه!». وأمر بضرْب أعناقهم وابتدأ بطعامه

* * *

سيف بن ذى يزن وملك الحبشة

٥٠ — ومما نقله ابنُ المقفع عن الفُرسِ وتَعالَمُه العرب:

أن ملك الحبَشة لما غلبَ على مملكة سيف بن ذى يَزَن، خرج إلى كسرى مستصرِخاً إليه، ومستجيراً به عليه. وكان ملك الحبشةِ يُجرى على تَرْجُمان كسرى رزقاً مُثيباً على تحريف دَعْوى المتظلّمين منه [2]. وكان لكسرى يومٌ فى كل شهر يركب فيه، ويقرُب من عامَّته، ومن لا يصل إليه ممن انْتَجعه [3]. فتوَخَّى سيف ابن ذى يَزَن ركوبَه فى ذلك اليوم، فلما رآه قال: «أسعَد الله

---

(١) روح الحياة: برد نسيمها وطيبه وخفته

(٢) الرزق المثيب: المصلح للحال بعظيم غنائه

(٣) انتجعه: أتاه يطلب معرونه وخيره

الملكَ ! أنا سيف بن ذى يَزَن ، أغار علىَّ متملِّك الحبشة بفَرْط تعَديه وسوء جِوَاره ، فأخرجنى من مملكة عَمَرتُها أنا وآبائى مُذْ أكثر من مائتى سنة . وأنا أسأل الملكَ أن يُنجِدنى عليه [١] ، ويردّنى بطَوْله إلى مملكتى ومملكة آبائى » . فسأل الترجمانَ عن قوله فقال : «يقول : « أنا رجل من جِلَّة العرب [٢] ، وقد اختلَّت حالى ، واضطرب شملى لشدّة الفاقة ، وقد قصدتُ الملك مُسْتَتِرًا به ، ومستميراً منه [٣] » ، فأمر له بجائزة . فرأى سيف بن ذى يزن مالا يشبه ماابتدأه به

وصبر إلى اليوم الذى يسهُل فيه كلامه وانتَظَره فيه ، فلما رآه قال : « أنا أيّد الله الملِكَ ذو نعمةٍ وكفايةٍ ، وإنما وَفَدْت على الملك لأقتَبِس من عزّه ، وأنتصر بقُوَّته » ، فسأل الترجمان عما قال ، فقال : « يقول أمَرْت بما يقصُر عن حاجتى » ، فأمر له بجائزةٍ أخرى . فوقف على تحريف الترجمان لكلامه

فانتظره فى اليوم الثالث ، فلما رآه قال : أيد الله الملك ، إنَّ الغادِرَ ... فأدّى إليه هذا الحرفَ ، فقال : « الخائنَ » ... فرأى فى وجه الملك الاستفهام ، فقال : « الكذاب » ... فأشار إليه الملك

---

(١) أنجده على فلان : أغاثه وأعانه عليه

(٢) الجلة : جمع جليل ، وهو الكبير العظيم

(٣) استمار فهو مستمير : طلب الميرة ، وهى الطعام والرزق وما إليهما

بيده من هو ؟ فأوْمَى إلى الترْجمان ، فأحضر الملك ترجمانا آخر ، فقصّ عليه قصّته ، فضرب عنق الترجمان ، وأحْسَنَ تَلَقّيَ سيف بن ذى يزن لما تبيّن منه فى التأتّى لإفهامه [1]

ثم أحضره مجلسه فسأله عن مقدارِ حاجته ، وما الذى يُؤْثِرُه من أصناف الناس ؟ فقال له : « أسأل الملك أن يُطْلِق لى من محابِسه الكهولَ ؛ فإنهم أصبرُ فى المعارك ، وأسمحُ بالنفوس » ، فأطلق له جملة من [فى] الحبس كهولاً بأسْرهم ، فحملهم فى مَرَاكب ، وركب معهم حتى وَافَى مملكته

فلما نَزَل جميعُهم ، أحرق المراكب ، واعتمد ذلك سراً منهم . فلما نظروا إلى المراكب قد أحرقت ، قال للرجال : « إنه لا يحسن بكم التَّعذيرُ فى القتال فتهلِكوا [2] ، ولكن جِدّوا جِدّ من لا نَجَاة له فى البحر » . فجرّد الجيشُ العِنَاية . وصَدَقوا حتى بَرَزُوا على من أقامَ بمملكته [3] ، واحتازُوا له طائفةً كبيرةً من أرض الحبشة ، وقهر مَلِكها واتّقى جانبه

* * *

أبو الوزير وجماعة من العمال

٥١ — وحدثنى هارون بن ملّول ، قال :

« تقلّد أبو الوزير - خالُ أبى أيوّب - الخراجَ على حالِ

(١) تأتى للشيء : ترفق فى إتيانه وإدراكه

(٢) عذر فى الأمر تعذيرا : قصر بعد جهد يبانه العذر فى الإخفاق

(٣) برز عليه : فاق عليه وغلبه

آضطرابٍ من الأولياء . واستعمل ـ من فَرْط الاستقصاء على أرباب الخراجات ، وإخراج البُقُوط[١] عليهم ـ ما ثقُلت به وطأتُه على الناس . وكان له كاتب ذهب عنّى اسمُه ، فى النهاية من الجزالة والضَّبْط[٢] ، وكان يُعزَى إليه أكثر صنيعِ أبى الوزير ، فقال لى هارون : « فقصده جماعةٌ من الأولياء ، فأحسّ بالشرّ فيهم ، فأغلق الباب عنهم ، ثم تأمّلهم حتى عرفَهم ، فكتب بفَحْمةٍ : « يا سيدى قتلنى فلان وفلان » ، وسمَّى جماعةَ رؤسائهم ، وكَسَروا الباب ودخلوا إليه فقَتَلوه . وركب أبو الوزير حتى شاهده ، ثم تأمل حائطَ مجلسه ، فوجَدَ الكتاب بالفحمة ، فقبض عليهم فصدَقوا عنه وقُتِلوا به »

* * *

ابن الأبرد وكاتبه

٥٢ — وكان لرجل من جِلّة كتّاب الجيش بمصر ـ يعرف بابن الأبرد ـ رغبةٌ فى وصفِه بالنُّصح فى أعمال السلطان ، ولابسه محمد بن أبَّا [القائد] ، فقدَّم العنايةَ به والتعصُّب له ، ومكّن له عند خُمارَوَيْه محلا ردَّ إليه بعضَ أعماله من الخراج . وآحتاج فيه إلى كاتب يحملُ عنه ، فآرتاد رجلا يعرف بنَصْر بن القاسم[٣] ـ يَخْلُف [ابن] الأبرد فيما أُسْنِد إليه ـ ، فكان يسعى به إلى كاتب خمارويه .

---

(١) البقوط : جمع بقط ، وهو ثلث خراج الارض والبساتين أو ربعه يلتزمه المعامل

(٢) الجزالة : جودة الرأى وأصالته

(٣) ارتاد الشىء : طلبه متخيراً

فكتب يوما رقعة تشتمل على ما كرهه ابن الأبرد من التغميز به والانتقاص له (١) ، ويشير فيها بأشياء تفسد محله ، وبعث بها إلى كاتب خمارويه . فغلط الغلام وجاء به إلى ابن الأبرد ، فاستعرض فيها أشياء قبيحة ، وفارق الكاتب . ورأى الكاتب أنه قد أحرز ـ بما أتاه من السعاية ـ مكانة عند كاتب خمارويه . وقتل خمارويه ، وثبتت يد كاتبه على الأمر ، فرام نصر بن القاسم أن يدخل في جملته ، فامتنع من ذلك وقال : «من سعى إلينا سعى بنا» ، فمات نصر ابن القاسم كمداً

* * *

عمرو بن العاص وتنكره

٥٣ — وسمعت سعيد بن عبد الله بن الحكم يقول :

« وجد في أخبار مصر المسندة أن عمرو بن العاص عند تغلبه على مصر كان يتنكر ويخرج وحده ، متشبها بالرجل من عامته ؛ ليرى ما عليه القبط من النية للمسلمين . فتمادى به السير راجلا حتى لحق بطرف من الفسطاط ، فرأى جماعة قد التأمت على سوء فيه (٢) . فقال لها : « اعملوا بي كل ما تؤثرون من السوء ولا تردوني إلى يد الأمير ، فإني هربت منه » ، فقال بعضهم : « ردوه إلى يد الأمير فإنه يقتله ، ويكون لكم بذلك عارفة عند الأمير » . فساقوه إلى دار [الإمارة] ، فأخذ يتضور ويتأبى في سياقته حتى قرب من الدار (٣) ،

---

(١) التغميز : الطعن على الرجل وإظهار غميزته ، أي عيبه

(٢) التأم القوم على الشيء : اجتمعوا عليه

(٣) تضور : تلوى واضطرب وصاح من خوف أو وجع أو جوع

فقام إليه الشُّرَط . فقال : « لا يفوتَنَّكم منهم أحَدٌ ! » ، فجُمعوا له ، فأتى على آخرهم ، ولم يعاوِد التنكُّر .

* * *

الدفانى والخناق

٥٤ — وكنت أعرف شيخاً فى أيام خمارويه ، حُلْوَ النادرة ، مليحَ الألفاظ ، يُعرَف بالدفَّانِى ، وكان معاشُه من التوصُّل بكتب الولاة إلى مُعامِليهم . فحدثنى أنَّه خرج بكُتُبٍ إلى الشَّرقية ، فالتقَى مع رجل فى زِىّ بعض المانيّة من الأطباء [1] : « وهو على حمارٍ بخُرجين ، وكنتُ على حمار . فاستخبرنى عن صِناعتى ، فتحسَّنت عنده بأن قلت : « أنا تاجر فى الغلّات » . فطمع فىَّ ، وكان مُبَنِّجاً ، [2] فقال لى : « هذا موضعٌ طيِّبٌ ، فلو أكلنا فيه ! » ، فقلت : « ذاك إليك ! » ، فأخرج من أحد خُرْجيه رغيفين مَشْطُورين ، [3] فوضع أحدَهما بين يدىّ والآخرَ بين يديه . ثم أخذَ كوزاً معه ومضى يسعَى به ، فشرِهَتْ نفسى إلى الرغيف الذى كان بين يديه . فأبدلته حتى صار بين يدىّ وصار رغيفى بين يديه . وجاء بالماء ، وابتدأنا بالأكل ، فما ابتلع لقمةً حتى شَخَص بصرُه وتمدَّد [4] ،

---

(١) المانية . هم المانوية الزنادقة أصحاب مانى

(٢) البنج . نبات يتبذ ، إذا استعمل خدّر وفتّر وأرقد . وبنجه : سقاه منه

(٣) المشطور : المقطوع شطرين ، والشطير : نصف الرغيف والجمع شطائر ، وستأتى

(٤) شخص بصر الميت : إذا ارتفعت أجفانه إلى فوق وجعل لا يطرف

واجتاز بنا جماعة فقالوا: «مالصاحبك؟»، قلت: «لاأدرى والله!»، فقالوا لى: «أنت مبنِّج بنَّجت هذا المسكين!»، وساقونى

فكان من لُطف الله أنَّ خليفة لموسى بن طُورنيق كان ببلدهم ويُجاورنِى يتقلَّد المعونة، فساقنى القوم إليه، والرجلُ محمولُ معنا، وهم يقودون الحِمَارَيْن، وقالوا له: «هذا مُبَنِّج وجدناه!». فلما رآنى ضحك إلىّ وقال: «متى تعلمت التبنيج؟»، قلت: «اليوم»، وقصصت عليه خَبَرى، وأخرجت كتابَ موسى بن طُورنيق فى برِّى. ففتش خُرْجَه، فوَجد فيه شطائرَ تبنيج وشطائرَ خاليةً، ووجد معها أوتاراً للخنق، وأحجارًا للشَّدْخ. فشدَخ رأسه بها، وخَنَقه بتلك الأوتار حتى فاظ»[1]

✡ ✡✡

خاتمة المؤلف للباب الثانى

وإذْ وَفَّيْنا ماوعدناك به – من أخبار المكافأة على الحسن والقبيح – مارجونَا أن يكونَ ذلك عَوْناً للاستكثار من مُوَاصلة الخير. وتطلُّب العارفة فى الحَسَن، وزَجْرِ النفس عن متابعة الشرّ. وإبعادها عن سَوْرَة الانتقام فى القبيح[2]، وقد قالوا: الخير بالخير والبادى أخْيَر، والشر بالشَّر والبادى أظلم . . .، رأيتُ أنْ أصِلَ ذلك – حفظكَ الله – بطرَفٍ من أخبارِ من ابتُلِى فصبَرَ. فكان ثمرةَ صبره حُسْنَ العُقْبَى؛ لأنَّ النفس إذا لم تُعْنَ عند الشدائد بما يجدِّد قُوَاها، تولَّى عليها اليأس فأهْلكها

(١) شدخ رأسه: كسرها، وفاظ الرجل: خرجت روحه فمات

(٢) سورة الخبر وغيرها: حدتها وشدتها ووثوبها فى الرأس

وقد علم الإنسان أن سفورَ الحالة عن ضدِّها حَتْمٌ لابدَّ منه ، كما علم أنّ انجلاء الليلِ يُسْفِر عن النهار . ولكنّ خوَرَ الطبيعة أشدُّ مايلازم النفس عند نزولِ الكوارث ، فإذا لم تعالج بالدَّواءِ ، اشتدَّت العلة وازدَادت المِحْنة . والتفكُّر فى أخبار هذا الباب ، مما يشجّع النفسَ ، ويبعثُها على ملازمة الصبرِ وحسن الأدب مع الرّبِّ عز وجل ، بحسن الظَّنِّ فى مُوَاتَاة الإحسانِ عند نهاية الامتحان . والله ولىُّ التوفيق

٣ — حسن العقبى

٥٥ — ... [سقط من الأصل أول الكلام]

ابنا الاخبارى وغلام يتشطر

إلىّ بالشىء بعد الشىء مما تخلّف عن تلك الوديعة ، وعجوزٌ تختلف بذلك ، لها ولدٌ يتشطّر ويلعَبُ بالحمام (١) ، فورَدت عليهما بَدْرَةُ دراهم (٢) . وقد انتهى بهما السعى فى الإيداع . فقالا للعجوز : « صيرِى بها إلى ابنِكِ مع هذا الغلام حتى تُودِعِيها لنا عنده » ، فمضت بها والغلام معها ، فحدَّثنا الغُلام قال :

« صرنا إليه وقد فَتَح باب البُرْجَ وأخرجَ فِراخًا زُغْباً (٣) ، وهو ينظر إليها ، فأدّينا الرسالةَ إليه ، فقال : « ليس لى خزانةٌ ولا صندوق ، ولكن اجعلها فى هذه المِحْضَنة الخالية من البُرْج (٤) » ، قال : « ففعلتُ .

« وانصرفنا جميعاً على أنه يُمَزِّقها مع الغِلْمان وسُبّاق الحمام (٥) .

---

(١) شطر تشطارة وتشطر : خرج عن أهله وتركهم وأعياهم خبثاً ، وهو الشاطر وهو صاحب الفتوة والمروءة والقوة

(٢) البدرة كيس يكون فيه ألف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار والجمع : بدور وبدرات

(٣) زغب : جمع أزغب ، وهو فرخ الطائر يكون عليه الزغب ، وهو أول ما يبدو من دقاق ريشه

(٤) المحضنة : الموضع الذى يحضن فيه الحمام على بيضته

(٥) السباق : هم الذين يتراهنون على سباق الحمام

ثم صَلَح ما كان الْتاثَ من أمرِنا [١] ، واطمأنت نفوسُنا عما كان أخافنا. فبعثنا فيما كُنّا أودعناه الشيخ ، فقال للغلام : « غَلِطْتَ بى ، وليست الرسالةُ إلىّ » ، فلما رجع بالجواب إلينا ، تحيّرنا وركبنا إليه ، فاستمرّ فى الجحود ، وتضاحكَ مما لقيناه به ، ورجعنا وقد لحقَنا من فَقْدِ الوديعة أكثَرُ مما كنا نخافُه من النّكْبَة . وميّلنا بين مُطالبته بما نُنبّه به على مقدار ما أودعناه [٢] ، ونُطمِع مَنْ خفناه ، وبين الإمساك عنه ، وتربُّص الأيام به ، فمالت نُفوسنا إلى الإمساك لمّا اجتمعت لنا الصغائر المُغادَرة للعدل [٣] . واجتازت بنا العَجوز فقالت : « قد رددنا ما أوْدعْناهُ وبَقِى ابنى » . واقتضتنا الغلامَ يحمل البدرة فبعثنا به معها

فحدّثنا الغلام قال : « وافيناه بين يَدى السُبْرج ، فأدّت العجوز إليه الرسالة ، فقال للغلام : « ادخل فخُذْها من المِحْضَنَة التى خلفتها فيها » ، فصار بها إلينا الغلامُ وعليها ذَرْق الحَمام [٤] ، فوزنّاها فوجدناها على ما كانت عليه . فكثر تعجّبنا من أمانته ؛ وأخرجنا من البدرة ألفَ درهم ، وتقدّمنا إلى الغلام بالمصير بها إليه . فرجع الغلام إلينا فقال : « رمى بها إلىّ وتمشّى » . فآثرنا ارتباطه [٥] ،

---

(١) التاث الأمر : اختلط والتف وفسد

(٢) ميل بين الأمرين ، ومايل بينهما : فاضل ووازن

(٣) هكذا فى الأصل

(٤) ذرق الطائر : سلحه وخرؤه

(٥) ارتبطه : أوثق صلته به

وقلنا للعجوز : « صيرى به إلينا الساعة ! » ، فوافانا ، فقلنا : « انبسطنا إليك فانقبضت عنا ! » ، فقال : « الخيانةُ ـ أعزّكم الله ـ أسهلُ من أخْذِ أجرةٍ على الأمانة » ، فقلنا : « جزاك الله خيرا ، فقد وجدنا فيك مالم نجده فى غيرك » ، فقال : « وتخلّف عنكم شىء ممّا أودعتموه » ، فقلنا : « نعم ! » ، فقال : « عرِّفونى ، فإنى أرجو أن آخذَه لكم بألطف حيلةٍ » ، فرأيناه ـ لما فيه من فَضْل النفس وكَرَم السجيّة ـ أهْلا لأن نَبُثَّه وَجْدَنا [1] ، فأخبرناه ؛ فقال : « ينبغى أن تتقدّما إلى بعض من تثقان به من غلمانكما ، أن يتيقّظ ؛ فلعلِّى أن أناديَه الليلة » ؛ فقلنا : « وما تريد بذلك ؟ » ، فقال : « مالا يجوز أن أبديه ، وأرجو عون الله عليه ، والتفريج عنكما به » ، ففعلنا ذلك ، وما يتطاول سؤلنا إلى ما أتاه [2]

فجمع إخوانا له فى عدّة كثيرة من الشُّطّار [3] ، واقتحم على المستودَع وقال له : « ماجئْنا لنهْبكِ ، ولا نتعرّضُ لشىءٍ من مالك ، وما جئنَا إلّا لوديعةِ أبى عُمَر الأخبارى . فإن أدّيْتَها خرجنا وكأنّا مادخلنا . وإن جَحَدْتَ واعتمدت بصياحٍ قتلناكَ الساعةَ ، وسهُل علينا عقوبتُنا فيك وقَتْلُنا بك ، لأنّا نُرْزَق الشهادة فى القتل والمَثوبةَ ، إذ كنا نجاهد عمّا اختزلته [4] » ، وضرب إلى لِحيَته

(١) بثه وجده : أطلعه على مايكتم من الأسف والحزن

(٢) السؤل : البغية

(٣) الشطار جمع شاطر انظر ص (١٠٧)

(٤) اختزل المال : اقتطعه وانفرد به

وأعْجله [١]، فقال : « هي في هذه الخزانة » . ودعا بغلام فقال : « أخرِجْ جميع ما [أوْدَعَنَاه ابن] عُمَر » ، فأخرج سَفَطًا كان فيه جواهر ، وسَفَطاً[٢] فيه أثوابُ وَشْى مذهَّبة صِحَاحاً ، وبُدُورا فيها مال [٣] ، فقال : « والله لئن خافَتَ شيئا لَنُطَلَّنّ دمك [٤] ، ولئن كنت أدّيت الأمانة لنكوننّ أولياءك والمقيمين بأمرك »

فوافوْا باب منازلنا ، فصاحوا بالغلام وهم يحملون الوديعة ، فوضعوها بين أيدينا وحدّثونا بحديثهم ، وقالوا : « استعرِضُوا وديعتكم ، فنحن في الدهليز حتى تفرُغا وتُخبِرَانا : هل بقي منها شيء أم لا ؟ » ، فلما عرضْناها على ثَبَتِها عندنا [٥] ، ماغادرتْ شيئاً منهُ ، وعادت بما ردّ إلينا نعمتَنا ، وانحسمت فاقتُنَا ، ولم نجد في الجماعة من قبل شيئا مما بذلناه ، وانصرفوا »

* * *

رجل مختل الحال وعباس البرمكى

٥٦ — وحدثني أحمد بن أيمن قال :

« كنت أكتب في حداثتي للعباس بن خالد البرْمَكيّ ، وكان طويلَ اللسان مَخْشِيّ الغَضَب . فإني لجالس بين يديه في داره بمدينة السلام ، حتى دَخَل علينا شابٌّ حسنُ الصورة رثُّ الهيئة ،

(١) ضرب إلى لحيته : أي ضربها بيده فأمسكها

(٢) السفط : الوعاء الذي تعبى فيه الثياب

(٣) البدور : جمع بدرة ، انظر ص (١٠٧)

(٤) طل دمه : أهدر وأبطل ديته

(٥) الثبت : جريدة تثبت فيها الأشياء ـ (الكشف)

فأكب عليه فقال : « ألست ابن فلان صديقِنا ؟ » ، فقال : « نعم ، ياسيدى ! » . فقال : « قد كان حَسَن الظاهر جميل الهيئة ؛ فما بلَغ بك إلى ماأرى ؟ » ، قال : « كان تجمُّله أوْفَى من عائِدته ! و تُوُفّى ، فكنتُ أتبلَّغ بما يستعمله المُوقّى على جَاهِه [1] ، إلى أن خانَ طبعى البارحة ولم أُطِق سَتْرَ مابى فقصدتُك » . فدعا بمائة درهم ، وقال : « تمسك بهذه إلى أن أنظر لك فى عائدٍ عليك من الشُّغْل » . فلما قام من عنده قال لغلام يثق به : « قُصَّ أثَرَ هذا الفَتَى ؛ فانظر مايبْتاعُه بهذه الدراهم وأحْصِه عليه حتى يدْخُل منزله ، وآعرف المنزل وصِرْ إلىّ » . فرجَعَ إليه وقال : « ياسيدى ! هذا غلام عَيَّار ! [2] ابتاع ببَيِّف وثلاثين درهما سَمِيذًا وسُكَّرًا وعَسَلا ولحماً كثيرا وحوائجَ الأعراس [3] ، وأخذ طبّاخاً من طبّاخى الأعراس ، وأحسِب أنّ عنده دعوة وقد عرفتُ منزلَه » ، فقال : « دَعْهُ »

فلم تمض إلّا أيام يسيرةٌ حتى وافَى الفتى فأعرض عنه ، وآستثقل جلوسَه بين يديه ؛ فقال : « ياعمّى وسيّدى ! ليس يشبه هذا اللقاءُ مالقيتنى به فى الأولى ! » ، قال : « كنتُ فى الأُولى راجيا لصلاحك ، وأنا اليوم آيسٌ منه » ، فقال : « وكيف ظننتَ ذلك ؟ » ، قال :

---

(١) تبلغ بالشىء : اتخذه بلغة يكتفى بها

(٢) العيار : أصله الكثير المجىء والذهاب الذكى الطواف ، وهو هنا (البلطجى)

(٣) السميذ : دقيق تتخذ منه الحلوى

« أخبرنى غلامى أنك أنفقتَ إلى أن بلغت منزلك نَيفًا وثلاثين درهما ، وكان حقُّك أن لاتزيد على ثلاثة دراهم » ، فقال : « لو عرفت خَبَرى لقدّمت عُذرى ! » ، قال : « ماخبرك ؟ »

قال : « كنت مع تضايُقِ حالى ، أُمْسِك نفسى عن المسألة ، وأقتصِرُ وأهلى على البُلغة [1] . وأنا ساكنٌ وأهلى فى ظهر دار فلان ـ ووصف رجلا ظاهرَ اليَسار من التجّار ـ وقال : « له طاقاتٌ فى مطبخه تُفضِى إلى منزلى . فأولم وليمةً لاأشك فى حضورك إياها . فشَرِقَ منزلى بروائح الأطعمة ، وكانت الصَّبيَّةُ من صبيانى تخرُجُ فتقول : « رائحة جَدى يُشْوَى ! » وأخرى تقول : « رائحة نَقَانق تُقلى ! » وهذه تقول : « ياأَبَهْ ! أشتهى من هذا الفالوذج الذى قد شاعتْ رائحتُه لقمةً ! » ، وقولهم يُقَرِّح قلبى [2] . وأمّلت أن يدعوَنى فأتحمّل التزليل لهم [3] ، فوالله مارآنى أهلا لذلك ، فقلت : « ولعلّه إذ نَقصْتُ عنده من منزلةِ من يدعونى أن يبعث إلىّ ؟ فوالله ما فَعل . فبِتُّ بليلة لايبيتُ بها الملدوغُ ، فأصبحتُ فى الغداة فكنتَ أوثَق فى نفسى مِن سائر مَنْ بمدينة السلام . فلما أعطيتنى تلك الدراهم اشتريتُ بها حوائج أُصلِحُ منها ماآشتهوه ، فأكلوا أيّاما منه ، وهم يدعون الله فى الإحسان إليك ، والخَلَفِ عليك »

---

(١) البلغة : كل مايكتفى به

(٢) يقرح قلبه : يجرحه ويملأه قروحاً

(٣) التزليل : حمل الطعام من الوليمة عند الانصراف عنها

فقال له العباس : « أحسنتَ ! بارك الله عليك ! » ، ثم صاح : « ياغلمان ! أسرِجُوا لى » ، ولبِس ثيابَه ، وركب وركبتُ معه ، ودخل إلى صاحب الصَّنِيع [١] فقال : « دعوتَنى وجماعةَ وُجُوه بغداذ إلىطعام مَقَتنا الله عليه ! وعرّضت نعمتَنا للزوال ، وأنفسنا إلى اخترام الأعمار ! » ، وقصّ قصّةَ الفتى ، وقال : « عزمتُ على أن أُصدِّق عن كلّ من حَضَر وليمتك [٢] ، وتكونُ سبباً لتخلّف الناس عنك ، والإمساك عن إجابتك أخرَى الليالى » ، فقال : « أنا أفتدى إذاعتك بما غفلتُ عنه بخمس مائة دينار » ، قال : « أحْضِرْها » . فأحضرها ، فقال : « اقبِضْها » ، فقبضْتُها

ثم ركب إلى جماعةٍ فقال : « أعطونى فى مَعُونة رجلٍ من أبناء النّعَم اختَلّتْ حالُه » ، فأخذ منهم خمس مائة دينار أخرى ، ورَجع إلىمنزله ـ وقد كانأمرَ الفتىألّا يبرَحَ منه ـ ، فأدخلهإليه ، وقال : « فِيمَ تهش إليه من التجارة ؟ » ، فقال : « فى صناعة الأنماط [٣] ، فإنها صناعةُ أسلافنا ، ومَنْ بها يَعْرِف حُقُوقَنا » . فدعا برجُلمنهم حَسَنِ اليسار ، فأخرج إليهالألف الدينار التىأخذها ، فقال : « هذا المالُ لهذا الفتى ، فليكن فى دُكّانك ، واشترِ له بها ما يُصلحه من المَتَاع وبصِّره به » ، ثم قال للفتى : « احذر أن تُنفِق إلامن رِبْح » . فانصرفالفتى ، وقد رُدَّ عليه سَتْرُه ،

(١) الصنيع : الوليمة

(٢) صدق عنه : أخرج صدقة

(٣) الأنماط : جمع نمط ، وهى ضرب من البسط له خمل رقيق

فحلف لى أحمد بن أيمن : « أنَّ بضاعته تَثَمَّرت (١) ، وأرباحه آتصلت ، وعامَلَ السلطان ، ودخل فى جُمْلة التّجار وجِلّتهم »

* * *

أبو يوسف القاضى والغنوى

٥٧ — وحدثنى أحمد بن أبى عمران ، عن مسلم بن أبى عُقبة ، عن أبيه عقبة ، ـ وكان عقبةُ هذا مصادقاً لأبى يوسف القاضى وتِرباً له (٢) ـ ، قال :

« كان أبو يوسف قد انقطع إلى أنحاءِ الفِقْه (٣) ، فأحسنَ القولَ عن أبى حنيفة ؛ وكانت زيادته فى العلم ، بمقدار نقصانه فى الرزق ـ وكان كل من يستعرضُ حاله بالكوفة ، يشير عليه [بالرِّحْلةِ] إلى بغداد . ويرى أبو يوسف صوابَ مايُشار به عليه ؛ فَيُقْعِدُه نقصانُ حاله عن المركب الفارهِ (٤) ، واللّبسة التى تُشبه من حلَّ محلَّه من العلم ، ونُزِع إليه من أقصى النواحى (٥)

« وكان له غلام كان لأبيه ، حاذقٌ بعمل الجَوَاشن والدُّروع وكثيرٍ مما يحتاج إليه من آلة الحرب (٦) ، وكان يأتيه فى كلّ شهر

(١) تثمرت : نمت وكثرت ثمرتها وأرباحها

(٢) ترب المرأة : هى صاحبتها التى ولدت معها ، وأما الرجل فهو « لدته وسنه »

(٣) أنحاء الفقه : وجوهه وأبوابه ونواحيه

(٤) الفاره : النشيط الحادّ القوىّ من الدواب

(٥) نزع إليه : قصد من بعد

(٦) الجواشن : جمع جوشن : درع وزرد يلبسه الصدر والحيزوم من العنق

بمـا يقوته فى حاضرةِ الكوفة ، ولا يُعينه على حضْرة السلطان .
فرغب فى الغلام عامل للمهدىّ على الكوفة ـ قد ذهب عنّى اسمه ـ ،
فطلبَه من أبى يوسف ـ وهو يومئذ من أصاغِر رَعَاياه ـ ، فباعه
منه بتسعين ديناراً

« وخرج عند ذلك إلى بغداد ، فارتاد دابّةً وثياباً

« وكان لعبد الله بن القاسم الغَنَوِىّ ـ أحدِ أصحاب الأعمش ـ
محلٌّ من المهدىّ ، ولم يكن فى المجالِس التى تنعقد ببغداد فى الفِقْه
أجل من مجلسه . فدَخَل أبو يوسف مع كافّةٍ من دخل ، مِنْ غير
تسليم على عبد الله ، ولا مُقَدِّمة لحضور مجلسه . وكان أبو يوسف
حَسَنَ الصورة ، جميلَ الإشارة ، لطيفَ التخلُّص والاحتجاج ،
فقَبِله قلبُ عبد الله ولم يعرفه

« وجرت مسائلُ وأجوبةٌ ، كان حظُّ القياس فيها مقصِّراً ، وكان
الاحتجاج على ظاهِر القول . فتكلم أبو يوسف فيها فأَحسن
الاحتجاج وجوَّد ، وأعانه على هذا طُولُ لِسانه وحُسْنُ بيانه ، ثم
سألهم فقصَّروا عن الجوابِ ، فأبان عنه لهُمْ برفق . فلمـا تقضّى
المجلس عاتبه عبد الله على تخلُّفه عنه وتعريفِه مكانَه ، وسأله أين
نَزَل ، فأخبره . فرغب له عن الموضع الذى سكنه ، ودعاه إلى
منزلٍ بالقرب منه ، وقرَّر خبره عند أبى عبيد الله كاتب المهدى ،
فوصله بالمهدىّ وأَسْنَى رزقه [1] ؛ ثم قَرَنه بالهادى فأقام معه مُدَّة

---

(١) أسناه : جعله سنياً أى رفيعا عظيما

أيامه ؛ وبلغ مع الرشيد مالم يبلغْهُ عالم بعلمه ، ولا محبوبٌ بمرتبته »

✡✡✡

علي بن سند وأبي الجيش ثابت

٥٨ — وحدَّثني علي بن سند ـ وكان انقطاعه في أيام الموفَّق والمعتضد إلى أحمد بن محمد بن بسطام ، وكان آل عُبَيد الله بن وهب يَحْقِدُون [عليه] سوالِفَ مُنْكَرَةً ، ولم يكن مع عُبَيْد الله من سوء المباداة مامع القاسم ابنِه [1] . فلما حُبس أحمد بن محمد ابن بسطام ، قُبِض علينا معاشرَ خلفائه في الأعمال ، وأُثبِتْنا في جَرِيدةٍ [2] ، وتُقدِّم بإحضارنا إلى داره ، فيئسنا من الحياة ـ ، وقال لي عليُّ بن سندٍ:

« فلم يكُن في جماعتِنا أضعفُ حالا مني ولا أقلُّ ناصراً ، فرأيت الموتَ . وحُمِلنا إليه ، وقد أَحْضَر الجلاّدين والسِّيَاط والموكَّلين بالمعابر [3] ، قال : فقُدِّم منا رجلٌ من جِلّة أصحاب أحمد بن بسطام فضُرب ، وأُخذ خطُّه بما أعلم أنه لاتصلُ إليه يدُه . وبين يديه رجل ظهرُه إلينا لا نعرفه ، فلما فرغ [من] أمره ، سمعت الذى بين يديه وهو يقول : « هَبْنِيهِ عارفتَك ! » ، فقال : « ذَرْهُ ! حتى يرى عِظَم ماسلم منه بكَ » ، فقال : « هو يراه غدًا » ، فقال القاسم : « سلّموا عليَّ بن سند ـ لا رعاه الله ! ـ إلى صاحبه أبي الجيش ثابت » ،

---

(١) باداه مباداة : أظهر له مافي نفسه من عداوة أو غيرها

(٢) الجريدة : ورقة تجرّد فيها الأسماء وتكتب (كشف بيان)

(٣) المعابر : هكذا بالأصل ، ولا أدرى ماهو ، ولعله يريد بعض آلات التعذيب

فرأيته وقد قبّل يده ، ورُدَّت علىَّ الحياة بشفاعته ، وأُطلِقتُ من غير مصادرة ولا عقوبة [١]

« فلما رجع ثابتٌ إلى مكانِه ، وصار بى رسولُ القاسم إليه ، قال لى : « مرَّ بىَ اسمُك فى الجريدةِ فاستوهبتُك ، لأنّ أباك كان من إخوانى » . فجزَّيتُه الخيرَ على رِعايته والدِى ، فىَّ

* * *

محمد الغورى ولص

٥٩ — وحدثنى محمد بن صالح الغورىّ ، قال :

« كانت لى بضاعة أعود بفَضْلها على شملى ، فافترقتُ فى معاملات فى الصَّعيد ، وخرجتُ إلى من عاملته فجمعتها ، وكان مقدارها خمس مائة دينار . وخرجت أريد الفسطاط فى رُفقَة كثيرةِ الجمع ، فلما كان مُنتَصفُ طريقِنا ، وافَى جمعٌ من الصَّعاليك فسلبَ النَاسَ جميعاً . ودَهِشتُ [٢] ، فرأيتُ منهم شاباً حَسَنَ الصورة ، فقلت له : « والله ما أملك غير هذا الكِيس ، فارفعه لى عندك ! » ، فقال : « وأين بيتُك بالفسطاط ؟ » ، فقلت : « فى دور عبَّاس بن وليد » ، فقال : « ما اسمك ؟ » ، قلت : « محمد الغورىّ » ، قال : « امضِ لشأنك » . وجاءَ منهم من قلَّع ثِيابى وسراوِيلى ، وانصرفُوا عنا . ولم أزد أن سوَّغتُ واحداً منهم جميع ما كان معى [٣] ، ودخلنا إلى

(١) المصادرة : توثيق الاتفاق على مال يدفع يفترق على أدائه أحد الطرفين

(٢) دهش : تحير واضطرب

(٣) سوغه : أعطاه له سائغاً سهلا

الفسطاط ونحن فقراء . فرجع كل واحد منهم إلى ما تخلّف لَهُ ، وبقيت ليس معى درهم أُنْفِقُه

« وإنى لجالس على درجة المسجد بين المغرب وعشاء الآخرة ، حتى رأيتُ رجلا قد وقفَ بى ، فقال لى : « هاهنا منزل محمد الغورىّ ؟ » ، قلتُ : « أنا هو ! » ، ولا والله ! مااهتديتُ إلى الرجل الذى أعطيته المالَ ، لأنه كان عندى أوّلَ مالٍ ذاهبٍ ، فقال لى : « عَنَّيْتَنِى ! »[1] ، وأخرج الكيس فدفعه إلىّ ، فرُدَّتْ علىّ جِدَتى وتطعّمتُ الحياةَ[2]

وكان بالقرب منّا قائد يُعرَف بابن قَرَا ، كنتُ مُعامِلا له وكان له محلٌّ[3] ، فسألت اللّصَ المَبيتَ عندى ففعَل . فأصبحت وصرتُ إلى ابن قَرا وقصصت عليه قصّة الرجل ، فقال لى : « الْطُفْ لِى فيه ، فوالله لأُنَوِّهَنّ بِاسمِه ، ولأُكَافِئَنَّه عنك » . فرجعت إليه فأخبرته ، فوالله ما ارتاع ولا اضطرب ، ومَضَى معى ؛ فأحسن تلقّيه ، وخلَع عليه ، وصيّره سِيارةً لعَمَله ،[4] وضمّ إليه عِدّة وافرة . ولم يزل فى حَيِّزه إلى أن تُوُفِّىَ »

✲ ✲ ✲

---

(١) عنيتنى : أتعبتنى

(٢) الجدة : الوفر والغنى ، وتطعم الشىء : ذاقه وتمتع به

(٣) يريد : كان له محل رفيع ومكانة

(٤) وردت هذه الكلمة قبل صفحة ٣٨ ولست أحقق معناها ، وهى على كل حال : عمل من أعمال الدولة فى ذلك العصر

مصقلة ومعن ابن زائدة

٦٠ — حدثنى أحمد بن أبى يعقوب ، عن أبيه ، عن جَده واضح ، قال :

« كانت بين المهدى وأخيه جعفر بن أبى جعفر عداوةٌ فى أيام المنصور ، وكان مَصْقَلة بن حبيب يَنْقل عنه إلى جعفر مايكره ، ولا يُمْكِنُ المهدىَّ أن يسطُوَ على مصقلة ولا يمسَّهُ بسوءٍ . فلمّا تولى الخلافة نَذَر دمه ، فاختفى . فحدثنى مَصْقلة أنه نَبَا بِه موضعُه الذى كان به ، فخرج مستترا يريد غَيْرَه ، فلحقه رجل من أعدائِه وصاح فى أصحاب الأرْباع [1] ، « هذا بُغْيَة أمير المؤمنين ! » ، : « فتسرَّعَ إلىّ الشُّرَط ورأيتُ الموت عِياناً . فبينا أنا فى أيديهم ، آجتاز بى معن بن زائدة ، فصحت به : « ياسيدى ! ياأبا المنذر ! أجرنى أجارَك الله ! » . فقال للشُّرَط والرجلِ المتشبِّثِ بى : « خلُّوا عنه » ، فقال الرجل : « ماذا أقول لأمير المؤمنين ؟ » ، قال : « تقول له إنَّه عندى » ، ثم أمَر بحملى على جَنيبةٍ من جنائبه [2] ، وسار بى إلى منزله ، وقُدِّم طعامُه فأكلت معه ومع وَلَده . فلمّا فرغنا من الطعام قيل له : « وافى رسولُ أمير المؤمنين ! » ، فقال لولده : « آقضُوا حقِّى عليكم بألّا تُسَلِّموا مَصْقَلة ، فقد آستجارَبى ! » . فحلفوا له

---

(١) أصحاب الارباع : هم فيما نستظهر من بعض النصوص ، الذين يتولون مراقبة المسافرين ، والنظر فى أحوالهم ، ويكون لهم حق حبس الداخلين إلى المدينة عن دخولها ، وقد مضى ذكرهم أيضاً فى ص (٥١) والأرباع هنا هى النواحى : أى نواحى المدينة ومداخلها

(٢) الجنيبة : هى الناقة التى يحمل عليها الطعام والميرة ، والجمع جنائب

على ذلك ، وركب

« فلما رآه المهدى قال : « تُجيرُ علىّ يامَعْن ؟ » ، قال : « نعم يا أمير المؤمنين ! » ، قال : « ونعم أيضاً ؟ » ، قال : « ياأمير المؤمنين ! قَتَلْتُ فى دَوْلتك زُهاء ثلاثين ألف عدوٍ ، ولا أستحق أن أُجيرَ فيها عدوّاً واحداً ! » ، قال : « نعم تستحقُّ ذلك ، قد وهبناك دمَه » ، فقال : « ياأمير المؤمنين ! ليس هكذا يُنْعِمُ مثلُك بالحياة ! إذا تصدّقت على أحدٍ بحياته فاجعلْها فى خفضِ عَيْشٍ من نِعْمَتِك[1] » ، قال : « يُعْطى ألفَ دينار » ، قال : « ياأمير المؤمنين ! لا تستَوِى جائزتُك وجائزةُ عبدك مَعْن ! هــذا ماسمحت له به » ، فقال : « آدفعوا إلى جار معنٍ ألفىْ دينار » . فحُمِلَتْ معى إلى منزلى ثلاثة آلاف دينار ، وأمنتُ على نفسى »

* * *

أولاد ابن طولون وابن أخيهم

٦١ — وحدثنى رَبيعة بن أحمد بن طولون ، قال :

« لمـا توفى خُمَـارويه ، قَبَضَ علىّ - وعلى مُضَر وشَيْبان ابنى أحمد بن طولون - جَيْشُ بن خمَارويه ، وحُبِسْنا بدمشق . فلمّا قَفَل إلى مصر ، حبسنا فى حُجرة من الميـدان معـه . وكانت لنا فى كل يوم مائدةٌ نجتمع عليها . وكان فى الحجرة رِوَاق وبيتان ، وجُلوسنا فى الرِّوَاق . فوافى خدَمٌ له ، فأدخلوا أخانا مُضر فى البيت وأغلقوا عليه الباب ، فانفَصَل عنا . وكانت المـائدة تُقَدّمُ إلينا ، ونُمْنَع أن

(١) الخفض : السعة والدعة واللين فى العيش

نُلقِيَ إليه منها شيئاً ، فأقام خمسة أيام لا يَطْعَم ولا يَستغيث . ثمّ وافانا ثلاثة من أصحاب جَيْش ، فقالوا : « مامات أخوكم بعدُ ؟ » ، فقلنا : « مانسمع له حِساً ! » ، ففتحوا الباب فوجدوه حياً ، ورامَ القيامَ فلم يصل إليه ، ورماه الثلاثة بثلاثة أسهم فى مقاتله فَطَفِئَ[1] . وكانت الليلة التى دخلوا فيها ليلة جمعة ، وأخرجُوه وأغلقوا البابَ علينا

« وأقمنا يومَ الجمعة والسبتَ لم يقدّم إلينا طعامٌ ، فظنَنّا أنهم يسلُكُونَ بنا طريقَه . فلمّا كان يوم الأحد ، سمعنا رجّةً فى الدار وفُتِح باب الحجرة ، وأُدخل إلينا جيش بن خُمَارويه ، فقلنا : «ماخبرك فقال: «غلب أخى على أمرى ، وتولى إمارة البلد هارون بن خُمَارويه» فقلنا : الحمدُ لله الذى قَبَضَ يَدَكَ ، وأضْرَعَ خدَّك »[2] . فقال : « ماكان عزمى إلّا أنْ أُلحِقَكما بأخيكما » . وأنفَذ إلى جماعتنا مائدةً ، فلمّا طَعِمْنا بَعث إلينا خادماً : « إنّ جيشاً كان قد عَزم على قتلكما كما قتل أخاكما ، فاقتلاه وخُذا بثأركما منه ، وآنصرِفا على أمانٍ » ، وبعث إلينا خدَما ، فتسرّعوا إليه فقُتِل . وآنصرفنا إلى منازلنا وقد كُفِينا عدوّنا »

* * *

٦٢ — وحدّثنى منصور بن إسماعيل الفقيه ، قال :

أحد ملوك الهند وتاجر

---

(١) طفئ الرجل : خمد وهمد وانطفأ لهب حياته

(٢) أضرعه : أذله وأخضعه

« خرج رجل نعرفه بتجارةٍ ، قَصْدُه إلى الهند : فرجع إلينا بأنواع من الطِّيب كثيرةٍ لها قيمةٌ خطيرة ، وهو فى نهاية السُّرور ، فقلنا له : « كم ربحتَ فى التّجارة الّتى خرجت بها من عندنا ؟ » ، فقال : « غرقتُ وسائرُ من كان معى ، فسلمتُ بحُشاشة نفسى فى جزيرة من جزائر الهند ، فتلقَّانى قوم فيها وجاءوا بى إلى ملكهم فقال لى : « قد نَفِدت الموهبةُ الخارجةُ عنك ، فما معك من الموهبةِ الثابتة عليك ؟ » ، قلت : « معى الكتابُ والحسابُ » ، فقال الملك : « ما بقى لك ، أفضل من الذى ذهب منك ، والصوابُ أن تعلّم آبنى الكتابَ بالعربيّة والحسابَ ، فأرجو أن نُعَوِّضك أكثر مما [فقدته] » ، وسلَّم إلىَّ من آبنَه : أذكى صَبِيٍّ وأَلْطَفه ، فتعلَّم فى مدة يسيرة ما يتعلّمه غيرُه فى مدة طويلة

فلمّا رأى أنه قد توَجَّه وآستحققتُ منه الإحسان [1] ، صار إلىَّ صاحبُ الملك فقال : « معى هديَّة من الملك إليك » ، وأدخل إلىَّ بقَرة فتِيّةً ، ثم قال : « أدفعها لك إلى الراعى ؟ » ، فقلت : « افعل » ، وصغُرَ فى عينى أمرُ الملك على عظم شأنه . فما مضى زمنٌ قصير حتى جاء الراعى فقال : « ماتت البقرة ! » ، واستقبلنى كلُّ خاصَّة الملك بالتغمُّم [2] . ثم ظهر فى آبنه تزيُّدٌ [3] ، فبعثَ إلىَّ

---

(١) توجه : أى قصد الوجه الصحيح
(٢) تغمم : أظهر الغم والهم
(٣) تزيد : يريد زيادة فى العلم

ببقرة فتية أخرى فردَدْتها إلى الراعى ، فما مضت مدّة يسيرة حتى وَافَى يبشِّرُنى فقال : « قد حملت البقرة ! » . فلما انتهى حملُها وَضَعَتْ فهنّأنى حاشية الملك بأسْرهم . ثم جلس الملك مجلساً عاماً ، وأحضر التجارة التى رأيتموها معى ، ثم قال :

« لم يذهب علىَّ ما يجبُ لك فى تعليم ابنى ، ولم أبعث بالبقرة الأولى لفضل البَقَرة عندى . ولـكن نزلت بك محنةٌ فى البحر أتَتْ على مالِك ، فامتحنت بالبقرة ما أنتَ عليهِ منهـا . وعلمتُ أنى لو أعطيتُك جميعَ ما ملـكتْ يدِى - وقد بقى منها شىءٌ - لضاع منك وهَلَك لديك . فلما أُخْبِرت أنها ماتت علمت أنَّك فيهـا [1] . ثم آمتحنت أمرك بالبقرة الثانية ، فلما أخبرت أنَّها قد حملت علمت أنها قد آنحسَرَتْ عنك . فسُرِرت لك بذلك ، وآستظهرت بانتظارِ الوِلادة . فلمّا ولدتْ شخصاً كاملا صحيحَ الأعضاء ، علمتُ أنك قد فارقت محنتك . وهذا ما أعددته لك ! » . ثم وَصَلنى بِطِيب قوَّمته عشرين ألف دينار ، وحملنى فى البَرِّ فسلمتُ ، وزاد بأرض العرب ثمنه على ما قوَّمْتُه »

قال منصور . « فرأيته قد أيْسَر بعـــد الخَـلَّة والتلفيق فى المعاش [2] ! »

* * *

(١) قوله « علمت أنك فيها » : أى أن شؤمك ومحنتك متلبسة بها

(٢) أيسر : غنى بعد شدة وعسر . والخلة : الفقر

الفضل بن يحيى وشامى

٦٣ — وحدثنى أبو محمد يحيى بن الفضل، قال :

«اختفى عند والدى كاتبٌ للفضل بن يحيى بن برمك عند إيقاع الرشيد بهم، وكان يُواصل البكاءَ عليهم، ولا يسمع الوَعْظَ فيهم، فقال له أبى : «أنا أرجو أن يُخلِفَ الله عليك ولا يُضيعك»، فقال : «والله مابُكائى لما فاتنى منهم، وإنما بكائى لجلالة أخطارِهم ونَفَاسة أقدارِهم . ولقد كان لصاحبي فى الجمعة السالفة مالم أسمع بمثله لقديمٍ ولا حديثٍ، قال لى : «قد كَثُر الزوّارُ علينا [1]، فٱنظُر مقدارَ من ٱنصرف، وٱرفع إلىَّ عِدَّةَ من بقى من الزوّار لأتقدَّم فى بِرِّهم ؛ وٱحذر أن ترْفَع إلىَّ رجلًا من أهل الشام» ــ، لأنه كان يتشيّع [2]

«فخرجتُ فألفيت من فَضَل عن المنصرفين أربعة وثلاثين رجلا . وجاءنى رجلٌ من أهل الشام كاملُ الأدب ظريف الشّاهد [3]، فأعلمته ماتُقُدِّم به إلىّ، فقال : «يا أخى أسألك أن تُغالط بى وتثبتنى فى وسط الجريدة»، ففعلتُ ذلك . فنظر إلى الأسماء ثم قال : «ألم أتقدّم إليك أن لايكون فى الجريدة شَامِىٌّ ؟»، فقلت : «وأين الشامى ؟». فوضع ـ شَهِد اللهُ ـ يدَهُ على ٱسمه وحَلَّق [4]،

(١) الزوّار : هم العفاة والمجتدون وطالبو المعروف، وكانوا يسمون «السؤال»، فسماهم البرامكة «الزوّار» إكراماً لهم عن شناعة اسم السؤال

(٢) يتشيع : يتعصب لشيعة على رضى الله عنه وأهل بيته

(٣) ظريف الشاهد : ظريف اللسان

(٤) حلق : أدار حلقة دائرة على الاسم

ووقّع بيده لكل واحد غيرِ الشّامى ، فما قصّر بأحدٍ عن مائة دينار ، وأمرنى بإطلاقها وإنفاقِها فيهم . فجلستُ أفرّقها ، ووافَى إلىّ الشامى ، فأريته اسمَه خالياً وحدّثته حديثَه ، فقال : «لو قُضِى شىء لكانَ ، وأحسن الله جزاءَك على ماقدّمته من العنايةِ بى » ، وانصرف وقد غَمّنى أمره ، ولم يبق فى الزوّار أحد حتى أخذ

« فأنا فى منزلى قريباً من نصف الليل ، حتى وافانى رسوله ، فصرت إليه ، فقال : « أوَيْتُ الساعة إلى فِرَاشى . واستعرضتُ بفكرى شُغْل الزوّارِ وما أمرتُ به لهم ، فحَسُنَ عندى ، ثم قبّحه فى عينى حِرْمانُ الشامىّ المِسكين ، ورأيته نقْصاً فى مُرُوّتى ، فتقدّم فى دفع مقـــدارِ ماوصل إلى جماعةِ الزوّار إليـه » ، فقلت : « ياسيدى ! وصل إلى جماعة الزوّار خمسة عشر ألف دِينار ، وهذا يكفيه ألف دينار ! » ، فقال : « والله ماتفِى ألف دينار بغَمّه وقد رأى غيرَه يأخذ وقيامه عنك محروماً ، قُمْ فادفع إليه الخمسة عشر ألف ولا تَعذُلْنى ، فالخطأ فى الجميلِ أحسنُ من الصّواب فى القبيح ، وليس يَشْكرُ الناسُ من البرّ إلاّ ماأفرط ، فأمّا ما بَلّغ الحاجةَ فمنسىٌّ عند أكثرهم ، والواجب على من آثر جميلَ الذكر أن يَتَغَنَّمَ أيامه [1] ، ولا يسوِّف بشىء من فعله »

قال أبو محمد : « فبكَى والله أبى عند هذا الفصلِ من حديثِه حتى خفتُ عليه ، وقال : « ما أجهلَ الناس بقـدرِ مافقدوه من

---

(١) يتغنم الشىء : يغتنم وينتهز

هذا الرّجل ! »

قال الكاتب : « فخرجتُ وَبَثَثْتُ الرسُلَ فى طلب الشامىّ حتى وجدوه ، فوافانى وقد انحطّ أكثرُ لحمِه فى يومٍ واحد ، فقصصتُ عليه القصّة ، فحمد الله وأثنى عليه وشَكَرَنا جميعاً ، وقَبض المالَ وآنصرف على أحسن حال »

* * *

والد المؤلف وابن المدبر

٦٤ — وسمعتُ يوسف بن إبراهيم والدى ، وهو يقول :

« كانت بينى وبين أحمد بن محمد بن مُدَبّر سَوالف تُرْعَى ويُحَافظ عليها ، فلمّا تولى مصرَ رأى حُسْنَ ظاهرى ، فظنّ ذلك عن أموالٍ جمّةٍ لدىّ . فجدّ بى فى المطالبة ، وأخرج علىّ بقايا لعقودٍ انكسرت من آفات عَرَضَتْ لِضياعها ، ولم يسمع الاحتجاج فيها ، وآستقصر ماأوردته ، و [ظنّه] إنما كان عن حيلةٍ ، فاحتبسنى مع المتضمّنين. فكان يَغْدُو فى كلّ يوم غلامٌ له يحُجبه يُعْرف بفَضْل ، فيكتبُ على كل رجل مايؤدّيه فى يومه ، فإن شكا أنه لايَصِل إلى شىء ، أخرجه فحُمِّلَتْ عليه الحجارة ، وطُولِبَ أعنفَ مُطالبة

« فلم يزلْ بى إلحاحه حتى بعتُ حُصُرَ دارى فضلا عما فيها ، وعرضْتُ دارى فمَنعنى من بيعها ، ووَجّه إلىّ : « فأين يكون حُرَمُك ؟ » . فوافانى كاتبى فى يوم من الأيام فقال لى : « يشهدُ الله أنّا ما نَصِلُ لك اليوم إلى ما يُتيمِّت . فضلاً عن شَىء تؤدّيه ! » .

وأمسك فضل غلامُه عن الدخول فى ذلك اليومِ علينا ، وتعرُّفِ مايؤدِّيه كل واحد منا ، فلما صلّيت الظهر من ذلك اليوم أنفذَ إلىّ توقيعاً نُسْخَتُه :

« يا أبا الحسن أعزّك الله ! قد ألويتَ بما بقى عليك (١) ، وهو سبعة عشر ألف دينار ، وآثرنا صيانتَك عن خُطّةِ المطالبة هذه المدة ، فإن أزَحْتَ العِلّة فيها ، وإلّا سَلّمناك إلى أبى الفوارس مُزَاحم بن خاقان أيّدَهُ الله ، وسبّبت به عليك لأصحابه (٢) »

« فكتبت إليه رُقعة أحلفُ فيها : « إنى ماأملك عَدَد هذا المال حبّ حِنْطَةٍ ، ولو كان لى شىء لصُنْتُ به نفسى ! وإن رأى السيِّد رعاية السالِف بينى وبينه وسَتْرَ مُخْتَفِىّ ، كان أهلا لما يأتيه ، وإن سلّمنى إلى هذا الرجل رَجوت من الله عز وجل مالا يخطئ مَن رَجاه »

« فرجع إلىّ بعضُ غلمانه ومعه رقعة مختومة ، فاستركبنى . وسارَ بى إلى مُزَاحم ، فلما قُرِئت عليه الرقعةُ أدخلنى إليه ، وعنده كاتب له يعرف بالمروزى فعرّفنى مزاحم ولم أعرفه - : وكان أبوه فى الحارة التى فيها دارُ أبى بِسُرّ من رَأى ، وربّته أمّ امرأةٍ لى تعرف بميمونة ، مولاةِ أمّ محمد بنت الرشيد ؛ ولا علم لى بشىء من

(١) ألوى ولوى الدين : مطله وتأخر بالعلل عن قضائه

(٢) سبب عليه : أى جعله سبباً يأخذ عليه مالا من المرسل إليه كان يستحقه لديه ، ويتولى المرسل إليه استخراج المال من الرجل المسبب عليه

هذا فقال : « أنت كاتب إبراهيم بن المهدى ؟ » ، قلت : « نعم ! أيد الله الأمير » ، قال: « كنت أراك وأنا صَبىٌّ فى حارَتِنا ، ووالله ما طَلَبَ ابن المدبّر أن يروّج علىّ مالاً [١] ، وإنما أراد أن أقتُلَك بالمطالبة . وقد قبلتُ التسبيب ، ورأيتُ أن أكتب إلى أمير المؤمنين أعرِّفه رُزُوحك وقصورَ يَدِك عن هذا المال [٢] ، فإن سَهِل ، وإلّا نَجَّمَهُ علىّ وعلى رجالى حتى يُقَاضَوْا به فى كل نَجْمٍ [٣] » ، ثم قال للمروزى : « هذا رجُل من مشايخى ، وأمّ زوجته ببغداذ تولّت تَربيتى ، وقد استكتبته على أمورى وما أحتاج إلى قَبالَتِه من الضِّياع بمصر [٤] ، وليس يُزِيلُك عن رسمِك [٥] » ، وأخذ خاتماً قد كان تُخْتَمُ به الكُتُب بحضرته فأعطانيه . وسألنى عن العجوز التى رَبَّتْه ، فقلت : « هى بمصر معى ! » ، وانصرفت من عنده إلى منزلى . فكان أوّلَ من هنّأنى بمحلى منه ابنُ المدبر ، ورجعت إلى نِعْمتى معه فى مدة يسيرة »

✲ ✲ ✲

ابن العجمى المهندس وابنى موسى

٦٥ — وحدثنى أبو كامل شُجاع بن أسلم الحاسب ، قال :

---

(١) روّج عليه المال : عجله له

(٢) الرزوح : العجز والضعف والإعياء من الثقل

(٣) النجم : الوقت المضروب لأداء المال ؛ ونجم المال : أدّاه نجوما (أقساطا) فى أوقات معلومة متتابعة مشاهرة أو مساناة

(٤) قبالة الضياع : كفالة الرجل أموال خراجها ، واحتماله بأدائها لبيت المال

(٥) الرسم : هو عندهم الولاية على بعض أمر الدولة

« كان إبراهيم بن الأعجمى المُهَنْدس قد تقاصَرتْ يدهُ واختلّتْ حاله ، فتكلّم على شكْل من أشكال الهندسةِ ورَفعه إلى مَنْ أوصله إلى المأمون ، قال أبو كامل : فحدثنى سَنَد بن على فقال :

«سأل المأمونُ محمَّدَ وأحمدَ ٱبنى موسى بن شاكر المنجِّم ، عن منزلة إبراهيم بن الأعجمىّ فى الهندسة ، فقالا : « منزلة ضعيفةٌ ، وفيه عاميَّةٌ » ، فقال المأمون للسندى بن شَاهك : «أحضرْنى إبراهيم ابن الأعجمى » ، فلما أحضره ووقف بين يدى المأمون ، تَهيَّبه ، فلم تبدُ منه كلمةٌ ، قال : فرأيتُ انقطاعه قد سَرَّ ٱبنَىْ موسى [1] ، وقالا للمأمون : « قد عرَّفنا أميرَ المؤمنين أنه ليس بمحلٍّ من يَدخُل إليه ، فقلت : « ياأمير المؤمنين ! لولا أنك تَبْسُطُنا بمناجاتك والمواظبةِ عليها ، لكُنّا بمنزلة إبراهيم فى الانقطاع من كلامِك ؛ فأما تقصير هٰذين به فى الهندسة ، فإنى أُشهد سيدى أميرَ المؤمنين أنى من بعض تلامذته ، وعليه ٱبتدأتُ قراءةَ الهندسة ! » ، فأمر بإيصاله إليه مع خاصّته ، وأجرى عليه ماوسعه »

« فقلت للسندىّ : « متى قرأت الهندسة ؟ » ، فقال : «امتعضْتُ والله ممَّا لحقه من تعسُّف هذين الرجلين [2] ، فنزَّلتُ هذا القول لأرُدَّ به الإصْغَار عنه [3] » ، فصلُحت حالهُ ، ورجع إلى أفضل ماكان عليه »

---

(١) انقطع الرجل : صمت أو أعيي فلم يستطع أن يتكلم أو يعمل
(٢) امتعض : شق عليه الأمر وعظم فتوجع منه
(٣) نزّل القول : وضعه وادعاه وتقوله كذبا ، والإصغار : التحقير

* * *

محمد وأحمد ابنى موسى وسند بن على

٦٦ — وحدثنى [أبو كامل] شجاع بن أسلم الحاسب أيضا ، قال :

« كان محمدُ وأحمدُ ابنا شاكر ـ فى أيام المتوكل ـ يكيدان كلَّ من ذُكِر [بالتقدُّم] فى معرِفةٍ . فأشْخَصا سَنَد بن على إلى مدينة السلام وباعدَاه عن المتوكل . ودبّرا على الكندىّ حتى ضربه المتوكل ، ووجّها إلى داره فأخذا كُتبَهُ بأسْرها ، فأفرداها فى خزانه سُمّيت الكِندية ، ومكَّن هذا لهما آستهتارُ المتوكِّل بالآلات المتحركة (١)

وتقدّم إليهما فى حفْر النهرِ المعروف بالجعفرىّ ، فأسنَدَا أمرَه إلى أحمد بن كثير الفَرْغانى ـ الذى عمِل المِقياس الجديد بمصر ، وكانت معرفتُه أوْفَى من توفيقه ، لأنه ما تمّ له عمل قطّ ـ فغالِطَ فى فُوَّهة النهرِ وجعلها أخفض من سائره ، فصار مايغمُر الفوَّهةَ لايغمُرُ سائرَه ، فدافع محمد وأحمد ابنا شاكر فى أمره . واقتضاهما المتوكل ، فسُعِى بهما إليه فيه . فأنفذ مستحِثًّا فى إحضار سَنَد بن على من مدينة السلام ، فوافَى

فلما تحقق محمّد وأحمد ابنا شاكر أنّ سنداً قد شَخَص ، أيقنا بالهلكة ويَئِسا من رَوْح الحياة (٢)

---

(١) الآلات المتحركة : هى آلات رصـــد النجوم المعروفة بالاصطرلاب

(٢) روح الحياة : نسيمها وطيبها

فدعا المتوكل سَنَدًا وقال [له] : ماترك هذان الرَّديئانِ شيئاً من سُوء القولِ إلا وقد ذَكَراك عندى بِهِ ، وقد أتلفا جُمْلَةً من مالى فى هذا النهر ، فاخرج إليه حتى تتأمَّله وتُخبِرَنى بالغَلَط فيه ، فإنى قد آليتُ على نفسى ـ إن كان الأمر على ماوُصِف ـ أن أصلبَهما على شاطئه » . وكلُّ هذا بعين محمّدٍ وأحمدَ وسَمْعِهما ، فخرج وهما معه « فقال محمد [بن موسى لسند] : يا أبا أحمد « إن قُدْرَةَ الحرِّ تُذْهِب حَفيظَتَه ،(١) وقد فزِعنا إليك فى أنفُسنا التى هى أنْفَسُ أعْلاقنا(٢) ، وما نُنْكر أنَّا قد أسأنا ، والاِعترافُ يَهْدِمُ الاقتراف ، فتُخَلِّصُنا كيفَ شئت »

« قال لهما : « أنتما تعلمان ما بينى وبين الكِندىّ من العداوةِ والمباعَدَة ، ولكنَّ الحقَّ أولى ما اتُّبِع . أكان من الجميل ما أتيتما إليه فى أخذِ كُتُبه ؟ والله لاذكرتُكما [بصالحةٍ] حتى تَرُدّاها عليه ! » . فتقدّم محمّد بن شاكر فى حَمْل الكتب إليه ، وأخذ خَطّه باستيفائها . فوردت رُقعة الكندىّ أنه تسلَّمها عن آخرها ، فقال لهما : « قد وَجَب لكما علىّ ذِمَامٌ بردِّ كُتُب هذا الرجل(٣) ، ولكما علىّ ذِمَامٌ بالمعرفة التى لم تَرْعَيَاها فىّ ، والخطأُ فى هذا النهر يستَتِرُ مُدّة أربعة أشهرٍ بزيادة دِجْلة ، وقد أجمع الحسَّاب على أنّ

---

(١) الحفيظة : الغضب المكتوم فى النفس

(٢) الأعلاق : الذخائر النفائس

(٣) الذمام : الذمة والعهد والحق

أمير المؤمنين لا يبلغ هـذا المَدَى ، وأنا أخبره الساعةَ أنه لم يقع خطأ فى النهرِ إبقاءً على أرْوَاحكما ، فإن صـدَق المنجِّمون أفلتنا الثلاثةَ ، وإن كذبوا ـ وجازت مدّته حتى تَنقُص دجلةُ ويَنْضَب النهر ـ أوقع بنا ثَلَاثَتَنَا »

« فشكر محمد وأحمد هذا القول منه ، واستَتَر الأمرَ واسترقَّهما[1] به ، ودخلَ إلى المتوكل فقال [له] : « ما غلطا » ، وزادت دجـلةُ ، وأجرى المـاءَ فيه ، واستقر حالُ النهر . وقتل المتوكل بعد شهر [ين] من إجرائه . وسَلِم محمّد وأحمد بعد شِدَّة الخوفِ ممّا توقّعا »

* * *

حصار اقريطش والإخلاص لله

٦٧ — وحدثنى الحسن بن مسلم الأقرِيطشىّ ـ ورأيته بعد أنْ علَتْ سِنُّه وبلغ المـائة سنة ، وكان صحيحَ التمييز ، سليمَ الحواسّ ـ قال :

« ألَحّ غزوُنا على الروم ، ونالهم منا مكروهٌ عظيم . فوجِدَ متملّك الروم من هـذا[2] ، ونَذَر أن يُخرِّب أقرِيطش ولو أنفق ذخائر مملكته . فنظر إلى راهب محبوب تتعالم الروم زَهَادته . فأنزلَه من مُتعبَّدِه ، وضمّ إليه أكثر جُيُوشِه ، فوافَى جمعٌ لم يُحِطْ بأقرِيطِش مثـله قط . ففزعنا إلى غَلَقِ الحصـن[3] ، وتسرّع الروم إلى بناء

(١) استرقه : استعبده وجعله رقيقاً أو كالرقيق

(٢) وجد من الشىء : غضب فى نفسه

(٣) غلق الحصن : أقفاله

مساكن لهم ، وخرجوا من المراكب ، وغلبونا على مِيرَةِ البلد وما يكون فى جواره [١] . واشتدّ الحِصار ، ونَزَع السِّعْر ، وتحلّق المأكول [٢] ، وشاع الجَهْد [٣]

ثم زادت المكارهُ حتى أكل الناس ماماتَ من البهائم جوعًا ، وأجمعوا على أن يفتحوا البابَ له ، فقال لهم شيخ : « إنى قد أراكم قد حُرِمتم التوفيقَ فى قُوّتكم وضَعْفِكم ! والصوابُ أن تَقْبلوا منى ما أُشيرُ به عليكم ! » ، قالوا : « قل » ، قال : « اتركوا لِله قَبِيحَ مايحملُكم عليه تَظَاهُرُ النِّعْمَة والسَّلامة [٤] ، وأخلصوا له إخلاص من لا يَجِدُ فَرَجَهُ إلاّ عنده ، وافصِلُوا صبيانكم من رجالكم ، ورجالَكُم من نسائِكم » . فلمّا ميّزهم هذا التمييز صاح بهم : « عِجُّوا بنا إلى الله ! [٥] » ، فعجُّوا عَجّةً واحدةً ، وبكى الشيخ وبكى أكثرُ الناس . ثم قال : « عِجُّوا أُخرى ، ولا تَشْتغلوا بغيرِ الله » ، فعَجُّوا عجّةً أعظم من الأولى ، وبكى الناسُ أيضاً . ثم عَجّ الثالثةَ وعجّ الناس معه ، وقال : « تَشَرَّفوا من الحصن [٦] ، فإنى أرجو أن يكون الله قد فرّج عنّا »

---

(١) الميرة . الطعام والزاد

(٢) نزع السعر : غلا ، وتحلق المأكول : هلك أو كاد كما يكون فى أيام القحط

(٣) الجهد : المشقة والعسر من الجوع

(٤) تظاهرت النعمة : تضاعفت وتكاثرت

(٥) عج بالبكاء والدعاء : رفع صوته

(٦) تشرف : أطل وتطلع

لخلف لى الحَسَنُ : « إنى تشرَّفتُ مع جماعةٍ فرأيتُ الروم قد قوّضوا [رِحالهم] ، وركبوا مراكبهم . وفُتِح بابُ الحصن ، فوجدوا قوما من بقاياهم فسألوهم عن حالهم : فقالوا : « كان عميدُ الجيش بأفضل سلامةٍ إلى اليوم ، حتّى سمع ضجّتكم فى المدينة فوضع يدَه على قلبه وصاح : « قلبي ! قلبي ! » ، ثم طَفِئَ » [1] . فانصرف من كان معه إلى بلد الروم . وخرجنا عن الحصن ، فوجدنا فى تلك الأبنية من القمحِ والشعيرِ ما وسع المدينةَ وأعادَ إليها خِصْبَها ، [وكُفِينا] جماعتَهم من غير قتال »

* * *

سهل بن شنيف وابن بسطام

٦٨ — قال أبو جعفر :

« ولما غَلَبَ ابنُ الخليج على مِصر ونواحيها ، لم يكنْ بمصر أسوأَ قدرةً على أسباب أبي [علىّ] الحسينِ بن أحمد الماذرائى من أحمد بن سهل بن شُنيف ، فلم يمضِ شهور حتّى انهزم ابن الخليج وظُفِرَ به . وحُمِل إلى العراق . ودخل بعد ذلك بشهور أبو العباس أحمد بن محمد ابن بسطام إلى مصر متولّياً بالأمانة على الحسين بن أحمد ، وكاشفاً لما جرى عليه أمر الضِّياع بعد ابن الخليج وأصحابِهِ

فقرّر أبو علىٍّ أمرَ المتضمِّنين بالحضرة عند أبى العباس ، فعرّض بسهل بن شُنَيف ولم يدع سُوءًا إلاَّ ذكره به . فقال أبو العباس : « سيعلم ما يَجْرِى عليه منّى ! » . واتصل [الخبر] بسهل بن شنيف

---

(١) طفئ : انطفأت حياته وخمد

فاستُطِير قلبُه وكَسَف بالُه (١). وأُحضر مع جماعةٍ أجلبوا من الكتّاب مع ابن الخليج (٢)، فلمّا دخلوا عليه كاد يقوم إلى سَهْل بن شنيف، ثم رفعه حتى كان أقرب إليه من أخصّ أصحابه. ودعا ابنَ حُبَيش فسارّه، فنظر إلى سَهْل، وقال لأبي العباس: «الأمرُ على ماوصفت»، ثم أطلق سهلا من ساعته إلى منزله. فسأله أبو على: «هل تعرفه قبل هذا؟»، فقال: «لا والله! ولكنّه ورَد علىّ منه أشبهُ النّاس بأبي.

وأفرخ رَوْع سَهْل بتوفيق الله ولُطْفه، (٣) وما زال حفيًّا به حتّى مات».

***

٦٩ - قال:

المؤلف وابن بسطام

«وكنت قد عملتُ فى أيام ابنِ الخليج لحمايةِ ضِيَاع كانت فى يدى. فلمّا تمخّضت دولتُهُ اختفيتُ ونُهِبْتُ (٤)، وخِفْتُ الإيقاع بى، واعتور ضياعى العُمالُ (٥). وأضاقتْ حالى، فاجتمع الخوفُ والفاقةُ. فرأيتُ - بعد قدوم أبي العباس بن بِسْطام - فيما يَرَى النائم، يوسفَ بن إبراهيم والدى، وأنا أشكو إليه خَلّتى وخَوْفى، فكأنه

(١) استطير قلبه: ارتاع واضطرب، وكسف باله: تغير وساء حاله
(٢) أجلب عليه: أعان الخارجين عليه
(٣) أفرخ روعه: اطمأن قلبه بعد فزع
(٤) تمخضت: كادت أن تولد، وقربت ولايته الأمر
(٥) اعتوروا الضياع: تداولوها بالإيذاء والتضييق فى جباية الأموال

يقول : « أنا أتكلم فى أمرك حتى تعودَ إلى محبّتِك » . فلما أصبحتُ قصصتُ الرؤيا على من كنت مُخْتفياً عنده ، وكان حاذقاً بالعِبَارة[١] ، فقال : « يجرى لك فرج بذكر أبيك »

وطلب أبو العباس بن بسطام الدّستورات القديمةَ ليعتبر منها عَبْر الضِّياع[٢] . فأُخْرِج إليه ما كان لسنة خمسين ومائتين وماقبلها ، فرأى فيها اسمَ والدى فى ضياع كثيرة ، فقال : « من هذا يوسف ابن إبراهيم ؟ » فقال له أبو على : « هذا صاحب إبراهيم بن المهدى ، ورَضِيعُ المعتصم ! » ، قال أبو العباس : « وصاحبُ كتاب الطَّبيخ ؟ » ، قال أبو على: «نعم !» ، قال : « فله ولدٌ ؟ » ، قال : « نعم فى ناحيتى !» ، قال : « فخُـذْ لى منه كتاب الطَّبخ ، وكتابَ أخبار إبراهيم بن المهدى ، وصِرْ به إلىّ حتى يقرأهما علىّ » ، قال : « أفعلُ »

وكان إسحاق بن نُصَيْر يعرف موضعى ، فقال له : « أحتاج إلى أحمد بن يوسف » ، قال : « تُؤَمِّنُه ، وعلىّ إحضارُه ! » ، فكتب له أماناً بخطِّه ، وحلَف فيه ألاّ يُسَوءنى ولا يُطالبَنى . فخرجت إليه وأحضرتُهُ الكتابين . وفرّج الله عنى بأضعف سبب »

* * *

---

(١) العبارة : تعبير الرؤيا وتفسيرها

(٢) اعتبر عبر الشىء : استدل على الشىء بالشىء وتدبر حسابه حتى يفهمه . والدستورات : جمع دستور ، وهى النسخ المحرّرة المكتوبة ؛ يريد دفاتر الحساب

قابلة أولاد خمارويه وأختها

٧٠ – وحدثتنى أُمّ آسية – قابلةُ أولاد خُمارويه بن طولون ، وكان لها دِينٌ ومذهب جميلٌ ، ومحلٌّ لطيفٌ من خُمارويه . وقد نذاكرنا لُطفَ الله عز وجَلَّ فى أرزاق عباده ، وحُسْن الدِّفاع عنهم – : أنه تزوَّجها وأُختَها أخَوانِ ، فأقبلتْ حالُ زوج أختها وأدْبرت حال زوجها ، قالت : وتُوفِّى زوجُها بأسوإ حالة ، وخلَّف لها بناتٍ ، وتعذَّر عليها تجهيزُه من آختِلاله . وتُوفى زوج أختها ، وقد خلَّف من العَيْن والمَساكن والأوانى لوَلَد أختها :

قالت : « فكنتُ أجاهدُ فى مَؤُنة وَلَدى ، وإذا وَقَف أمرى ، صِرْت إلى أختى فقلت : « أقرِضينى كذا وكذا » ، استحياءً من أن أقول لها : « هَبِى لى ... » . ودخل شهر رمضان ، فلمّا مضى نصفه ، اشتَهَوْا علىَّ صبيانى حَلْوَا فى العِيد ، فصرت إلى أختى فقلت لها : « أقرضينى ديناراً أعمل به للصبيان حَلْوَا فى العيد » ، فقالت : « يا أختى ! تَغيظِينى بقولك : « أقرضينى » ، وإذا قرضتُك من أين تُعطينى ؟ أمِن غَلَّة دُورِك أو بُسْتانك[١] ؟ لو قلت : « هَبى لى » كان أحسن » . فقلت لها : « أقْضِيك من لُطف الله تعالى الذى لا يُحتَسَبُ ، وجُودِه الذى يأتى من حيث لا يُرْتَقَب ! » . فتضاحكت وقالت : « يا أختى ! هذا والله من المُنَى ، والمُنَى بَضائِعُ النَّوْكَى ! »[٢] . فآنصرفتُ عنها أجرُّ رِجْلىَّ إلى منزلى

---

(١) الغلة : الدخل الذى يغله العقار

(٢) النوكى : جمع أنوك : وهو الأحمق الذى لاعقل له

« وكان فى جوارنا خادم أسود لبنتِ اليتيم آمرأةِ خُمَارويه ، فلما بلغتُ حارتنا قال لى : « فى جوارنا آمرأةٌ تُطْلَق قد أوجَعَتْ قلبى [١] . آدخلى إليها فليس لها قابلةٌ » [٢] . قالت أمّ آسية : « ووالله ماعانَيْتُ ممخوضَةً قطُّ [٣] ، فدخلت إليها ، فمسحتُ جوفَها ، وأجلستُها كما كان القوابلُ يُجْلسننى فى طَلْقِى ، فولدت من ساعتها . فلما أمسك صياحُها ، جاء الخادم يسأل عنها ، فقلت : « قد وَلَدَتْ ! » ، فعجب من سُرْعة أمرها ، وظَنّ أن هذا شيئاً قد آعتمدتُه بحِذْقِ صِناعةٍ ، ولُطْفٍ فى مِهْنَةٍ . فمضى إلى سِتّه بنتِ اليتيم ـ وكانت مُقرِباً بأوّل ولدٍ حُمِل لأبى الجيش [٤] ، وقد عُرِض عليها قوابلُ استثقلتهنّ ـ ، فقال : « فى جِوارِنا قابلةٌ أحضرناها لمرأةٍ فى حارتنا تُطْلَق ، فوضعت يدَها على جَوْفها فسقَط ولدُها ! » ، ووصفنى بما لايُوجد فى قُدْرة أحدٍ إلا بالله عزّ وجل ! فقالت للخادم : « إذا كان غداً فجئنى بها » ، فأتى الغُلام ودَعَانى إلى مولاته ، فأجبتُ بانشراح صدر وثقةٍ بالله تعالى . فاستخفّت رُوحى وقالت : « إلى التّمامِ تقديرِ الله تبارك وتعالى » . ثم شكت مَغَساً

---

(١) طلقت المرأة (بالبناء للمجهول) : إذا أدركها المخاض ووجع الولادة

(٢) القابلة : هى التى تتلق الولد من بطن أمه ، (المولدة)

(٣) الممخوضة : هى الماخض ، وهى المرأة إذا ضربها الطلق ووجع الولادة

(٤) أقربت الحامل وهى مقرب : إذا دنا ولادها

تجده المُقْرِب [1] ، فأدخلتُ يدِى فى ثِيابها ومَسَحْت جوفَها ، وعَجَجْتُ إلى الله تعالى فى سِرِّى بتوفيق ، وكنتُ أدعو - ومَنْ حضَرَ من أهلها يَتوهَّم أنى أرْقِى - فسكنَ ماوجدَتْهُ وتبرَّكتْ بى. ودخل إليها خُمارَويه وقال : « ماوَجَدْتِى » فقالت : « مَغَساً فى جوفى ، فوضعت قابلةٌ أردتُها يدَها عليه ، فزال ما أجده ! » ، وأخرجتنى إليه - وكان قريباً من حُرَمِهِ - ، فقال لى : « أرجو أن يُخَلّصها الله عز وجل ببركتك »

قالت أم آسية : « ودخلنا فى العَشْر الأواخِرِ من شهر رَمَضان ، وقد تمسّكتُ من الإخلاص لله عز وجل بما لايَصِلُ إليه من ساحَ فى الجبال ، خوفاً من شماتة أُخْتى بِى . فلم تمض إلّا ثلاثةُ أيام حتّى مَخِضَت ، فأجلستُها على كُرْسِى الوِلادة - وكان مقدارُ طَلْقِها ساعتين - ، فولدت ابناً أسهلَ وِلادةٍ ، وأبو الجيش يقوم ويقعُد ، ويذهَبُ ويَجِىء . فلمّا ولدت - وكانت تتوقّع من الولادة أمراً عظيما - فلما ألقَتْه قالت لى : « هذا الطَّلق ؟ » ، قلت : « نعم ! » فقبّلت - يعلمُ الله - عَيْنَىَّ من الفَرَح . وصاح خُمارويه : « أخبرينى يامباركةُ بخبرها » . فقلت : « وحَياةِ الأمير إنها فى عافيةٍ ، وقد ولدت غلاماً سوىَّ الخَلْق بحمدِ الله » . فوجّه إلىّ بألف دينار ، وألحّ أبو الجيش فى النَّظر إليها لفَرْط إشفاقِه عليها ، فستوقفتُه إلى أنْ نقلتُ حَوَائج الوِلادة وقلت لها : « ياسيدتى ! اضحكى فى

---

(١) المغس والمغص : تقطيع يأخذ فى أسفل البطن والمعى

وَجهه كما تَرِيه [1] » . فلما دخل إليها ضحكت فى وجهه ، فتقدّم بصدقة بمالٍ كثير عنها وعن ولده »

وقالت لى أمُّ آسية : « لما كان يوم الأسبوع - ووقع قبل العيد بيوم واحدٍ - ، أمرت لى بخمس مائة دينار، وحصل من أتباعها ألفُ دينار، فحصل لى ألفان وخمس مائة دينار . وخلعت علىّ وسائرُ حَشَمِها أكثر من ثلاثين خِلْعَةً ، وحُمِل إلىّ مما أُعِدّ للعيد ثلاث موائد خاصّة . وانصرفت إلى منزلى ، فأرسلتُ إلى أختى مائدةً ، ووافتنى مهنِّئَة ، وقد تقاصرَ طُوْلها ، فأَرَيْتُها ماحَصَل لى من المال والخِلَع والطِّيب ، وقلت لها : « يا أختى ! أنكرتِ علىّ قولى : «أقرضينى» ومن هذا كُنْتُ أقضيك . فلا تستصغرى من كان اللهُ مادّته . وعليه مَدَارُ ثقتِه وتعويضِه »

واكتسبت هذه المرأةُ بمحلّها من أبى الجيش مالا كثيراً . وقضت لجماعةٍ من وجوه البلد حوائجَ خطيرة

* * *

سند بن على والمجسطى

٧١ — وحدثنى شجاع بن أسلم الحاسب ، قال : قلت لسَنَد ابن علىّ : « من كان سببَك إلى المأمون ، حتى اتصلتَ به ، وكنت [فى جلسائه] من العلماء؟ » . فقال : « أحدِّثك به :

«كان والدى يتكسّبُ بصناعة أحكامِ النجوم مع قومٍ من أسباب السلطان يَوَدُّونه ويحبُّونه . وتعلَّق قلبى بعد فَراغِى من

(١) كما تريه : تريد ، حين ترينه ، وقد مضى مثل ذلك فى ص (١٠)

قراءةِ كتاب أُقليدِس بكتاب المِجِسطى [١]. وكان ـ فى أيام المأمون بسُوقِ الورّاقين ـ رجلٌ يُعرف بمعروفٍ ، يُوَرِّق هذا الكتابَ ويبيعهُ [٢] ـ بعد تكامُل خَطِّه وأشكالِه وتجليدِه ـ بعشرين دينارا فسألت والدى ابتياعَه لِى ، فقال : « أنظِرْنى يا بُنَىَّ إلى أن يتهيأَ لى شىء آخُذُه [٣] ، إما من رزقٍ وإما من فضل ، وأبتاعُه لَكَ

وكان لى أخٌ لايشتهى مما [تقدمت] أنا فيه من العلم شيئاً ؛ إلّا أنه كان يخدُمُ أبى فى حوائجه والإشفاقِ عليه . فلما سَوَّفنى أبى بالكتاب وطالتِ المدَّة فيه ، ركبتُ معه لأمسك دَابَّته فى دخوله إلى من يدخُل إليه ، ولى إذْ ذاك سبع عشرة سَنَة . فخرج إلىّ غلمانُ من كان عنده فقالوا : « انصرف ، فقد أقام أبُوك عند مَوْلانا » . فمضيت بالدّابّة فبعتُها بسَرْجِها ولجامَها بأقلّ من ثلاثين ديناراً ، ومضيت إلى معروفٍ فاشتريتُ الكتابَ بعشرين ديناراً

وكان لى بيتٌ أخلو فيه ، وجئتُ إلى أمى فقلت لها : « قد جنيتُ عليكُمْ جنايةً » ، واقتَصَصْتُ عليها القصّة [٤] ، وحَلَفْتُ لها : إن شَحَذْت أبى علىّ حَتّى يمنَعُنى من النّظر فى الكتاب [٥] لأخرُجَنَّ

---

(١) هذان الكتابان من أشهر كتب يونان المترجمة إلى العربية ، الأول فى أصول الهندسة ، والآخر فى الهيئة

(٢) ورّق الكتاب : نسخه وأعدّه كاملا للبيع

(٣) أنظره : أخره رأجله

(٤) اقتص الشيء : حكاه متتابعاً

(٥) شحذه عليه : حرضه عليه وأغضبه

عنهم إلى أبعد غاية ، ورَدَدْت عليها فَضْلَ ثمنِ الدّابة ، وقلت لها : « أنا أُغلق بَابَ هذا المنزلِ الذى لى ، وأرضى منكم برغيف يُلْقى إلىّ كما يُلْقَى إلى المحبوسِ ، إلى أن أقرأه جميعَه » . فتَضَمَّنت لى بتسكين قَوْرَتِه ، ودخلتُ البيت وأغلقتُه من عندى . فمضى أخى إلى والدى فى الموضع الذى كان فيه ، فأسرّ إليه الخبر ، فتغير وجهُه ، وتلجلجَ فى حديثه ، فقال له مَنْ كان عنده : « قد شَغَلْتَ قلبي وقلبَ مَنْ حضر بما ظهر منك ، فبحقّ عليك إلا أخبرتنا لِمَ ذا ؟ » ، قال فحدثه ؛ فقال : هذا والله يَسُرّنا فى ولدك ؛ فاتّعدْ فيه بكل جميل[1] » ، ثم استحضر من إسْطَبْله بَغْلا أفرهَ من بغلِ أبى[2] ، وسَرْجاً خيرا من سَرْجه ، وقال لأبى : « اركَبْ هذا البغلَ ، ولا تكلِّم ابنَكَ بحرفٍ »

قال سَنَد : « وأقمت ثلاثَ سنين كيومٍ واحدٍ ، لا يرى لى أبى صورةَ وجهٍ ، وأنا مُجِدٌّ حتى استكملتُ كتاب المجسطى . ثم خرجتْ وقد عملت أشكالا مُسْتَصْعبَاتٍ ووضعتُها فى كُمِّى . وسألت : « هل للمهندسين والحُسّابِ موضعٌ يجتمعون فيه » ؛ فقيل لى : « لهم مجلس فى دارِ العباس بن سعيد الجوهرى رَبْبِ المأمون ، يجتمع فيه وجوهُ العلماء بالْهَيْئَة والهندسة » . فحضرته ، فرأيت جميع من حضر مَشايخ ، ولم يكن فيهم حَدَثٌ غيرى ، لأنى كنت فى العشرين سنة[3]

---

(١) اتعد : يريد انتظر فيه وعده بكل جميل

(٢) أفره من الفراهة : وهى نشاط الدابة وقوتها ؛ فهى فاره

(٣) الحدث : الصغير السن

« فقال العباس : « من تكون ؟ وفيمَ نَظرتَ ؟ » فقلت : « علام يحبُّ صناعةَ الهندسة والهيئة » ، قال : «ماقرأتَ ؟ » قلت : « أُقليدس والمجسطى » ، قال : « قراءَة إحاطة ؟ »، قلت : «نعم» . فسألنى عن شىء مستصعِب فى كتاب المجسطى ، كان تفسيره فى الأوراق التى كانتْ فى كمّى ، فأجبْتُه . فعجب وقال «مَنْ أفادك هذا الجواب ؟ » ، قلت : « استخرجتْهُ قَرِيحَتى ، وما سمعته من غيرى ، وهو وغيرُه فيما مرَّ بى فى وَرَقٍ معى » ، قال : « هاته » . فلما رآه اغتَاظ واضطرب ، ثم قال لبعض من بين يديه من غلمانه : «السَّفَط» [1] ، فجىء به ، فنظر إلى خاتَمه فوجده بحاله ، ثم فَضَّه وأخرج منه كُرّاسةً فجعل يقابلُ بها الورقَ الذى كان معى ، فكان الكلامُ فيما معه أحسنَ رَصْفًا من الكلام الذى معى . والمعنى واحد

« فقال : «هذا شىءٌ تولَّيْتُ تبيينَه من كتاب المجسطى ، فلمَّا أحضرتنيه توهَّمْتُ أنه سُرِق منّى ، حتى تبيَّنْت آختلاف اللفظين مع آتفاق المعنى » . ثم أمر أن تُقطع لى أَقْبية [2] ، وتُرتاد لى مِنْطَقةٌ مُذَهَّبة [3] ، ففُرغ من جميع ذلك فى تلك الليلة ، ودَخَل بِى إلى المأمون ، وأمَرنى بملازمته ؛ وأجرى لى أنزالاً ورِزْقا [4]

* * *

(١) السفط : وعاء تعبى فيه الأشياء

(٢) أقبية : جمع قباء ، وهو ثوب تجمع أطرافه من أمام بأزرار

(٣) المنطقة : مايدور بالبطن كالحزام

(٤) أنزال : جمع نزل ، وهو الرزق

الرشيد وطبيبه

٧٢ — وحدَّثنى أحمد بن أبى يعقوب، قال : حدثنى أبى :

« أنَّ جبريل بن بَختَيشوع كان يَخلُف الأطبّاء فى دار الرشيد وكانت به نَزَاهةٌ ، وبه فاقة شديدةٌ ، ورزقه يومئذ ثلاثمائة درهم فى كل شهر . فوقع الرشيدُ فى غَشية لم يتقدّمها علّة ، فأجمع الأطبّاء على أنه تالفٌ ، وأُخبر ابن بختيشوع ، فقال : « ماله إلّا علاج واحد وهو أن يَحجموه [1] » ؛ فقال محمد الأمين : « أخافُ أن أُخاطِر به » ؛ ثم قال « قد أيِسنا منه ، والصواب أن نمتحِنَ هذا فيه » . فأحضروا الحجّامَ لجمعَ الدّم فى أخدَعَيْه وهو مُستَلْقٍ [2] ؛ ثم أخرج من دمه مِحْجَمَتين ، ففتح الرشيد عينيه ، واستدعى طعامَه ، وأكل ونام

فلمّا انتبه اقتَصَّ عليه المأمون ما جرى عليه [أمرُه ، وأذِن] للداخلين فى تهنئته بالسلامة . فلما اكتملوا قال لهم : « يامعاشر الأمراءِ والأطبّاء ! إنّما ارتبطتكم لِحراسَةِ نفسى [3] ، وقد حَدَث علىَّ حادثٌ لم يُغنِ عنّى فيه بعدَ الله عزّ وجل إلّا هذا الغلام ! ونصيبُهُ منّى نَزْر ، ونصيبكم وافرٌ ، فاعدِلُوا مَيْل المملكة بأن يجعَل له كل رجل منكم نصيباً من إنعامى عليه وإحسانى إليه ، حتى يكون له من جماعتكم مايُوازى ماتقدّم عليه به فى حسن الدفاع عنّى »

---

(١) حجمه : أخذ من دمه وامتصه

(٢) الأخدعان : عرقان فى جانب العنق يؤخذ منهما الدم عند الحجامة

(٣) ارتبطه : اتخذه واستبقاه

فتسرّع الناس إلى جبريل فأعطوه الضياع والدّور والأموال . وما برح حتى كان أيسر مَنْ فى المملكة ، وتربّت النعمةُ لديه وولدِه حتى وازت نِعم الخلفاء.

* * *

عمرو بن عثمان والرشيد

٧٣ — وحدثنى عمرو بن محمد بن عمرو بن عثمان ، عن أبيه ، عن جدّه ، قال :

«كان لى مجلس فى ديوان الإنشاء قليل الجدوى علىّ ، وحالى حالٌ لا تنهض بما يحتاج إليه المُقْتصِد ، وقد لزمتْنى يمينٌ لا كفارةَ لها فى تَرْكِ النّبيذ . فكان جماعة الكتّاب يجلسون ماجَلَسَ الوزير — وهو يومئذ الفضل بن الربيع — ، فإذا آنصرف إلى منزله ، آنصرفوا إلى ما عقدوا عليه أمرَهم من الاجتماع ، وأقيمُ وَحْدى فى الديوان إلى أن يُغْلَقَ

فبكّرت إليه فى يوم من الأيام ، وجاءت خَطْرة تطرّبَ الوزير فيها إلى الشُّرْب [(١)] ، لتشاغل الرشيد فى دعوةٍ لزبيدة ، فلم يَبْقَ فى ديوان الإنشاء غيرى . فإنى لجالس حتّى دخل إلىّ خادمٌ من خاصةّ الرشيد ، فأخذ بيدى وأدخلنى إلى الرشيد . فلما مثلت بين يديه ، قال آقرأ هذا الكتابَ ! » ، فقرأتُه ، فبيّنتُه وأعربتُه فقال : «أجِبْ عنه بين يدىّ » ، فأجبت عنه بأحسن مَعانٍ وأجود لفظ . فقال : «اقرأه علىّ » ، فقرأتُه ، فقال لمسرور الكبير : « ألفَ دينار » . فجاء بها ، فقال : « آدفعها

(١) تطرّب إلى كذا : طرب

إليه ، وقُلْ للفضلِ يَصْرِفْ إليه ديوان الإنشاء [١] . فهو أحقُّ به ممّن غادره » . ثم قال لى : « خذ هذا المال ، وسأنظر لك فى الوقتِ بعد الوقت ما يزيدُ فى اصطناعى لك ، ولا يُفسِد الغنى ما أصلحتْه الفاقةُ من حُسْن ملازمتك ، واستزِدْنى أَزِدْك »

قال عمرو : « فاجتهد الفضلُ بن الربيع أن يُشرِك بنى وبين من كان يتولَّى الإنشاء ، فلم يُطلِق له الرشيد ذلك وأفردَنى به [٢] ، حتى فرّقت الأيام بَيْننا »

خاتمة

كلمات للفلاسفة والحكماء

قال أبو جعفر قال بزرجُمهر : « الشدائدُ قبل المواهب ، تُشبِه الجوع قبل الطعام : يَحْسُن به موقعه ، ويَلَذّ معه تناوُله »

وقال أفلاطُن : « الشدائدُ تُصلِح من النّفس بمقدار ما تُفسِد من العيش ، والتّـترُّف يُفسِد من النفس بمقدار ما يُصلِح من العيش [٣] »

وقال : « حافِظ على كل صديق أهدتْه إليكَ الشدائد ، والْهُ عن كل صديق أهدَتْه إليك النعمة »

وقال أيضاً : « التّرفُّهُ كالليل : لا تتأمّل فيه ما تُصدِره أو تتناوله ،

---

(١) صرف إليه كذا : ولاه إياه

(٢) أطلق له : أذن له

(٣) التترف : الترف والترفه فى العيش

والشدة كالنهار : ترى فيها سَعْيَك وسَعْىَ غيْرِك »

وقال أرْدشير : « الشدّة كُحْلٌ تَرَى به مالا تراه بالنِّعْمة »

٭٭٭

خاتمة المؤلف لهذا الباب

ومِلاك مصلحةِ الأمرِ فى الشدة شَيْئان : أصغرهما قُوّةُ قلب صاحبِها على ما يَنُوبه ، وأعظمُهما حُسْنُ تفويضِه إلى مالكه ورازِقه

وإذا صَمَد الرجُل بفكره نحو خالقِه (١) ، علم أنّه لم يمتحنْهُ إلا بما يُوجِب له مَثُوبة ، أو يُمحِّصُ عنه كبيرةً (٢) ، وهو مع هذا من الله فى أرباحٍ متصلةٍ ، وفوائد متتابعة

فأما إذا اشتدّ فِكْرُه تلقاء الخليقة ، كثُرت رذائله ، وزاد تَصَنُّعه ، وبَرِم بمُقَاساة فيما قصّر عن تأميله ، واستطال من المِحَن ما عسى أنْ ينقضِىَ فى يومه . وخاف من المكروه ما عسى أنْ يُخْطِئَه

وإنما تصدُق المناجاةُ بين الرجل وبين ربِّه لعلمه بما فى السرائر ، وتأييده البَصَائر . وهى بين الرجل وبين أشباهه كثيرة الأذِيَّة ، خارجة عن المصلحة

ولله تعالى رَوْح يأتى عند اليأس منه يُصيب به من يشاء من خَلْقِهِ (٣) ، وإليه الرَّغْبةُ فى تقريب الفَرَج وتسهيل الأمرِ ، والرجوع

(١) صمد إلى كذا : قصد وتوجه ومضى إليه

(٢) محص عنه الذنب : نقصه وأسقطه عنه

(٣) الروح : رحمة الله ، وإن الراحة كانها معها

إلى أفضل ما تطاول إليه السُّؤْل ؛ وهو حسبي ونعم الوكيل

تمَّ الكتاب

والحمد لله وحده وصلاتُه على سيدنا محمد النبي وعلى آله وعترته الطاهرين وسلامُه

فهرس الأعلام

ن

هـ

و

ى

فهرس الأماكن

ا

ب

ت

ج

ح

خ

د

ر

س

ش

ص

ط

ع

غ

ف

ق

ك

م

فهرس الكتاب

رقم　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　صفحة

٣ ـ المكافأة على القبيح

٣ — حسن العقبى